
فريدريش دورنمات
الوعد
مكتبة
رواية
«يحرف تقاليد روايات الإثارة النفسية النمطية...
ليس كتابًا لأي شخص يحب النهايات المريحة»
«الجارديان»



الوعد



لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي: Das Versprechen

فريدريش دورنمات، ١٩٥٨

First published in 1958

دورنمات، فريدريش، ١٩٢١-١٩٩٠.

الوعد: رواية / فريدريش دورنمات؛ ترجمها عن الألمانية سمير جريس

القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٧.

٢٤٠ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: 9789776467767

١ - القصص الألمانية.

أ - جريس، سمير (مترجم).

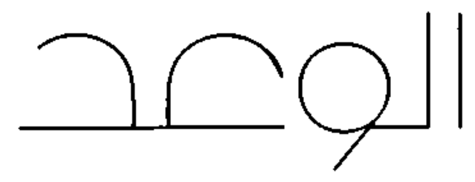
ب - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٦٤٩٦ / ٢٠١٧

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

فريدريش دورنمات



في رثاء الرواية البوليسية

ترجمها عن الألمانية

سمير جريس



١



في شهر مارس من هذا العام، كنت أنوي إلقاء محاضرة أمام «جمعية أندرياس داهيندن» في مدينة «كور» عن فن كتابة الروايات البوليسية. وصلت بالقطار مع مَقدم الليل. كانت السحب كثيفة وجاثمة، والرياح ثلجية وكئيبة. كل شيء متجمد. عُقد اللقاء في قاعة النادي التجاري وحضره عدد ضئيل لأن الناقد «إميل شتايجر» كان يقرأ في الوقت نفسه من أعمال «جوته» الأخيرة في القاعة الكبيرة بالمدرسة الثانوية. لم أندمج في الموضوع، ولم يتحمس أي من الحاضرين له، بل وغادر البعض القاعة قبل أن أنهي المحاضرة. بعد لقاء قصير بعدد من أعضاء مجلس الإدارة واثنين أو ثلاثة من المعلمين في المدرسة الثانوية ـ كانوا يفضلون هم أيضًا أن يستمعوا إلى أعمال «جوته» الأخيرة ـ وبعد أن تقابلت مع سيدة فاضلة كانت تشرف

متطوعة على شؤون «رابطة شرق سويسرا الخدم المنازل»، وبعد حصولي على المكافأة وبدل السفر، خلوت بنفسي في فندق «الكبش الجبلي» القريب من محطة السكك الحديدية حيث حجزوا لي غرفة. لكن الكآبة كانت تسود الفندق أيضًا. فيما عدا صحيفة ألمانية اقتصادية وعددًا قديمًا من أسبوعية «دي فيلت فوخه» لم أجد شيئًا أقرأه. الهدوء في الفندق غير إنساني، والنوم بعيد المنال بسبب الخوف الذي اعتراني من ألا أستيقظ أبدًا. الليل أبدي، شبحي. توقف الثلج عن الهطول في الخارج، كل شيء ساكن، لم تعد مصابيح الشوارع تتأرجح، لا هبة ريح، لا أي مواطن من «كور»، لا حيوان، لا شيء، ليس إلا الصدى الذي تردد في الأفق مرةً قادمًا من محطة السكك الحديدية. سرت إلى البار لأشرب كأسًا أخرى من الويسكي. عدا سيدة البار رأيت رجلًا عرفني بنفسه بمجرد جلوسي. كان السيد الدكتور هـ. الرئيس السابق لشرطة مقاطعة «زيورخ». رجل طويل وضخم، «موضة قديمة»، تمتد سلسلة ساعته الذهبية بعرض صدريته على نحو لم يعد المرء يراه اليوم إلا نادرًا. بالرغم من تقدم عمره، فلا يزال شعره الخشن أسود وشاربه كثًّا. كان يجلس أمام البار على أحد الكراسي العالية، ويحتسي نبيذًا أحمر، ويدخن سيجارًا ماركة «باهيانوس»، ويخاطب

سيدة البار بدون تكلُّف. صوته عالٍ وإشارات يديه كثيرة، رجل فظ جذبني، ونفرتُ منه بالقدر نفسه. عندما اقتربت الساعة من الثالثة صباحًا، وبعد أن أعقبت الكأس الأولى من «جوني ووكر» أربع كؤوس أخرى، عرض عليَّ أن يقلَّني في الصباح التالي بسيارته من طراز «أوبل كابتن» إلى «زيورخ». قبلت دعوته، إذ إن معرفتي سطحية بالمنطقة المحيطة بمدينة «كور»، وبهذا الجزء من سويسرا عمومًا. أتى الدكتور هـ. إلى مقاطعة «جراوبوندن» كعضو في إحدى اللجان الاتحادية السويسرية، ثم أعاقه الطقس عن الرجوع. كان قد استمع إلى محاضرتي، غير أنه لم يعلق عليها سوى بعبارة واحدة: «أنت لا تجيد الإلقاء».

في الصباح التالي بدأنا رحلتنا. في غبش الفجر ـ وحتى أستطيع أن أغفو قليلًا ـ تناولت قرصين من «الميدومين»، ولذا كنت كالمشلول. لم يكن النهار قد نشر نوره بعد، مع أنه بزغ منذ ساعات طويلة. في مكان ما لمعت قطعة معدنية من السماء. باستثناء ذلك كانت السحب تمسك بتلابيب بعضها، ثقيلة، متكاسلة. ما زالت حبلى بالثلوج، وكأن الشتاء لا يريد أن يغادر هذا الجزء من البلاد. المدينة محاصرة بالجبال، غير أنها لم تبدُ مهيبة سامقة، بل كانت تشبه أكوامًا من التراب تخلفت عن حفر قبر هائل الاتساع.

أما مدينة «كور» نفسها ـ ببناياتها الإدارية الضخمة ـ فبدت حجرية، رمادية. لم أستطع أن أصدق أن الكروم تُزرع في هذه المنطقة. حاولنا أن نصل إلى المدينة القديمة، غير أن السيارة الثقيلة أخطأت الطريق، فسرنا في حارات ضيقة مسدودة، وشوارع ذات اتجاه واحد، وتحتم علينا أن نقوم بمناورات انسحاب صعبة للخروج من فوضى البنايات، كما أن طبقة من الجليد كانت تعلو الحجارة التي تبلط الشارع، ولذلك ابتهجنا عندما تركنا المدينة خلفنا، مع أنني في الحقيقة لم أتفرج على شيء في هذه المدينة الأسقفية القديمة. كان الأمر يشبه الفرار. رحت أغفو بين الحين والآخر، ثقيلًا ومتعبًا، الوادي المغطى بالثلوج يمر بنا كشبح متيبس من البرودة. لا أعلم كم مضى من الوقت. ثم سرنا بحذر في اتجاه قرية كبيرة، ربما مدينة صغيرة، وفجأة غطت أشعة الشمس كل شيء. كان الضوء عظيمًا حتى إن المساحات الثلجية شرعت في الذوبان. تصاعد ضباب أبيض من الأرض انتشر فوق حقول الثلج على نحو غريب، فحجب منظر الوادي عني من جديد. كأني أرى حلمًا خبيثًا مسحورًا، كأنه لم يكن مسموحًا لي أبدًا بأن أتعرف إلى هذا البلد وهذه الجبال. حلَّ بي التعب مرة ثانية، ثم سمعت صوت الاحتكاك المزعج بالحصى المنثور في الشارع، كما أن السيارة انزلقت وانحرفت قليلًا

عند أحد الجسور ومررنا بمجموعة شاحنات عسكرية، فاتسخ زجاج السيارة اتساخًا لم تستطع المسَّاحات تنظيفه. جلس هـ. متذمرًا خلف المقود، غارقًا في أفكاره، مركِّزًا على الطريق الصعب. ندمت على قبول الدعوة، ولعنت الويسكي وأقراص «الميدومين». ولكن الحال تحسنت شيئًا فشيئًا. اتضحت معالم الوادي ثانيةً، وأضحت أكثر إنسانية أيضًا. المزارع في كل مكان، هنا وهناك منشآت صناعية صغيرة، كل شيء نظيف وشحيح. الشارع بلا ثلج أو جليد، يلمع من البلل فحسب، ولكنه آمن، وبالتالي كان من الممكن أن تنطلق السيارة مجددًا بسرعة محترمة. انزاحت الجبال، لم تعد تجثم على الطريق، ثم توقفنا عند محطة وقود.

أثار المبنى انطباعًا غريبًا في النفس، ربما لاختلافه عن البيئة السويسرية المعقمة المحيطة به. كان بائسًا، تنزُّ من جدرانه قطرات الماء. الجداول تمر به في طريقها المنحدر. نصف المنزل كان من الحجر، والنصف الآخر مخزنًا للغلال، على جداره الخشبي المتقاطع مع الشارع بعض الملصقات، منذ مدة طويلة على ما يبدو، إذ إن طبقات بأكملها كانت مُلصقة بعضها فوق بعض: «استعمل تبغ بوروس في الغليونات الحديثة أيضًا»، «اشرب كندا دراي»،

«سبورت مينت»، «فيتامينات»، «شوكولاتة ليند بالحليب»، إلى آخره. وعلى الجدار العريض كان مكتوبًا بأحرف عملاقة: «إطارات بيرلي». كانت مضختا الوقود أمام الواجهة الحجرية للمنزل، على أرضية غير مستوية وسيئة التبليط؛ الانطباع العام المتولد كان انطباعًا بالخراب، على الرغم من أن الشمس كادت أن تكون الآن لاسعة وشريرة.

قال اللواء: «فلننزل». وأنا أطعت من دون أن أدرك ما ينويه. كنت سعيدًا بالخروج إلى الهواء الطلق.

بجانب باب البيت المفتوح جلس رجل مسن على دكة حجرية. لم يكن قد حلق ذقنه أو استحم. كان يرتدي معطفًا أبيض، قذرًا ومبقعًا، وسروالًا غامقًا يلمع من الشحم، كان ذات يوم جزءًا من بدلة «سموكنج». في القدمين حذاء منزلي عتيق. كان يحملق أمامه في بلادة، ومن بعيد شممت رائحة الخمر تفوح من فمه. عَرَق «الأبسنت». حول الدكة الحجرية كان البلاط مغطى بأعقاب السجائر التي سبحت مع ماء الثلج المنصهر.

قال اللواء مرتبكًا فجأة، كما بدا لي: «حياك الله. من فضلك املأ الخزان. سوبر. ونظف الزجاج». ثم التفت لي قائلًا: «فلندخل».

لم ألحظ لافتة الكافتيريا فوق النافذة الوحيدة إلا الآن،

قطعة صفيح حمراء، وقرأت فوق الباب: «الوردة». دلفنا إلى ممر متسخ. عفونة العَرَق والبيرة. تقدمني اللواء وفتح بابًا خشبيًّا. يبدو أنه يعرف المكان جيدًا. كانت الكافتيريا بائسة ومظلمة، عدد من الموائد والدكك خشنة الصنع، على الجدران لُصقت قصاصات من مجلات عليها صور لنجوم السينما. الإذاعة النمساوية كانت تبث تقريرًا عن أسواق «التيرول»، وأمام البار كانت تقف امرأة نحيفة من الصعب التعرف على ملامحها، ترتدي روبًا منزليًّا، وتدخن سيجارة وهي تغسل الكؤوس.

طلب اللواء: «اثنين قهوة بالكريمة».

بدأت المرأة في إعداد القهوة، ومن الغرفة المجاورة جاءت خادمة متراخية قدرت عمرها بثلاثين عامًا تقريبًا.

غمغم اللواء: «إنها في السادسة عشرة».

قدمت الفتاة القهوة. كانت تلبس تنورة سوداء وبلوزة بيضاء نصف مفتوحة، لا ترتدي تحتها شيئًا، بشرتها لم ترَ الماء منذ فترة، وشعرها غير ممشط، وأشقر، مثلما كان شعر المرأة الواقفة على البار يومًا ما بالتأكيد.

قال اللواء: «شكرًا يا «أنّاماري»». ووضع النقود على المائدة. الفتاة أيضًا لم ترد، ولا حتى بكلمة شكر. رحنا

نشرب القهوة صامتين. كانت بشعة. أشعل اللواء سيجارًا. انتقلت الإذاعة النمساوية الآن إلى منسوب المياه، أما الفتاة فجرجرت قدميها إلى الغرفة المجاورة حيث لمحنا شيئًا يميل إلى البياض؛ على ما يبدو سرير غير مرتب.

قال اللواء: «فلنذهب».

في الخارج دفع الحساب بعد أن ألقى نظرة على عداد مضخة الوقود. كان العجوز قد ملأ الخزان ونظف الزجاج.

قال اللواء مودعًا: «إلى اللقاء». فلفت نظري ارتباكه مجددًا، ولكن العجوز لم يرد هذه المرة أيضًا، بل عاد يجلس فوق مقعده محملقًا أمامه في بلاهة وخمود.

عندما وصلنا إلى السيارة «الأوبل كابتن»، والتفتنا مرة أخرى إلى الوراء، طبق العجوز يديه، وهزهما وهمس بكلمات خرجت متقطعة، بينما سطع من وجهه نور إيمان عظيم: «إني أنتظر، إني أنتظر، سيأتي، سيأتي».

٢

بدأ الدكتور هـ. الحديث لاحقًا، عندما أوشكنا على الوصول إلى معبر «كيريتس»: «حتى أكون صريحًا...» ـ كانت طبقة من الجليد تعلو الطريق مجددًا، وتحتنا امتدت بحيرة «فالين»، ساطعة، باردة، صادة؛ كما استشرى في جسدي ثانيةً ذلك الإنهاك الثقيل النابع من أقراص «الميدومين»، وشعرت ببقايا طعم الويسكي المختلط بالدخان، وبأنني أنزلق في حلم عبثي لا ينتهي ـ «حتى أكون صريحًا، أنا لم أحسن الظن يومًا بالروايات البوليسية، وأشعر بالأسف لأنك أنت أيضًا تقوم بتأليفها. تضييع وقت. صحيح أن ما قلته بالأمس في محاضرتك كلام معقول يمكن الاستماع إليه؛ فمنذ أن فشل السياسيون هذا الفشل الذريع ـ وأنا أعرف عما أتحدث، فأنا نفسي سياسي، وعضو في المجلس النيابي، كما تعرف ربما

(لم أكن أعرف، كنت أسمع صوته يأتي من بعيد وأنا متحصن خلف تعبي، غير أني كنت منتبهًا كحيوان في جحره) ـ والناس يأملون في أن تنجح الشرطة على الأقل في نشر النظام في العالم، وأنا لا أتصور أملًا أكثر بؤسًا من ذلك. غير أن هناك، للأسف، احتيالًا من نوع آخر تمامًا يمارَس في هذه القصص البوليسية. ولا أعني بهذا أن مجرميكم ينالون دومًا عقابهم، فهذه الأسطورة الجميلة ضرورية بالتأكيد من الناحية الأخلاقية. إنها من الأكاذيب التي تقوم عليها دعائم الدولة، مثل القول الورع الشائع: «الجريمة لا تفيد» ـ على الرغم من أن نظرة واحدة إلى المجتمعات البشرية تكفي لمعرفة حقيقة هذا القول ـ لا أريد أن أتوقف عند كل ذلك، ولا عند المبدأ التجاري، إذ إن الجمهور ودافعي الضرائب لهم الحق في الحصول على أبطالهم وعلى نهايتهم السعيدة، ونحن رجال الشرطة وأنتم يا محترفي الكتابة ملزمون بتقديمها. كلَّا، إن أحداث رواياتكم هي أكثر ما يغيظني. هنا يكون النصب سافرًا ووقحًا إلى أبعد حد. الأحداث تسير لديكم بصورة منطقية، وكأن المرء يلعب الشطرنج، هنا المجرم وهناك الضحية، هنا المُطلع على الجريمة وهناك المستفيد؛ يكفي أن يعرف المخبر القواعد وأن تتكرر اللعبة حتى يمسك بالمجرم ويساعد العدالة على الانتصار. هذا الوهم يولد

الغضب في نفسي. المنطق لا يساعد في الوصول إلى الحقيقة إلا جزئيًّا. مع أننا نحن رجال الشرطة ـ أعترف ـ مجبرون أيضًا على التحليل المنطقي العلمي، غير أن العوامل المعيقة التي تفسد علينا هذه اللعبة كثيرة جدًّا، ولذلك يحدث مرارًا أن يحسم الحظ المهني أو الصدفة الأمر لصالحنا، أو ضدنا. ولكن الصدفة لا تلعب في رواياتكم أي دور، وإذا بدا شيء كأنه صدفة، فإنكم تطلقون عليه القضاء أو القدر؛ منذ قديم الأزل وأنتم ـ أيها الكُتَّاب ـ تضحون بالحقيقة من أجل القواعد الدرامية. حان الوقت كي ترسلوا هذه القواعد إلى الجحيم! لا يمكن أن يسير الحدث وفق حسبة معينة، على الأقل لأننا لا نعرف كافة العوامل المؤثرة في الحدث، إننا نعرف عددًا قليلًا منها فحسب، وفي معظم الأحيان تكون هذه العوامل حقًّا ثانوية. كما أن المصادفات والأشياء غير المتوقعة أو التي لا يمكن قياسها تلعب دورًا كبيرًا للغاية. قوانيننا ترتكز على المحتمل، على الإحصاءات، وليس على العلاقة السببية، وهي قوانين صائبة في العموم، وليس في الخصوص. الفرد لا يخضع للحسابات. إن وسائلنا لتعقب الجريمة قاصرة، وكلما طورناها، زادت في الحقيقة أوجه القصور فيها. غير أن ذلك لا يهمكم يا محترفي الكتابة. أنتم لا تحاولون أن تتصارعوا مع الواقع الذي

يراوغنا دومًا، بل تشيدون عالمًا ينبغي تجاوزه. قد يكون هذا العالم كاملًا، ربما، لكنه أكذوبة. تخلوا عن الكمال، إذا أردتم أن تتقدموا للوصول إلى جوهر الأشياء، إلى الحقيقة، هكذا يجب أن يسلك الرجال، وإلا فلتظلوا جالسين، منشغلين بممارسة تمارين أسلوبية عقيمة. ولكن فلندخل في الموضوع.

حتمًا تعجبتَ صباح اليوم لأشياء عديدة. أولًا، على ما أظن، بسبب الخطبة التي ألقيتُها؛ إن على رئيس سابق لشرطة مقاطعة «زيورخ» أن يتبنى آراء أكثر اعتدالًا؛ ولكنني عجوز تخلص من كافة الأوهام. أعرف مدى الشكوك التي تخامرنا كلنا، أعرف أننا لا نستطيع سوى القليل، وأننا بسهولة نضل الطريق، ولكنني أعلم أيضًا أن علينا بالرغم من ذلك أن نُقدم على الفعل، حتى إذا كنا نخاطر بارتكاب خطأ.

كما أنك تعجبت لتوقفي قبل قليل أمام محطة الوقود البائسة تلك، وأريد أن أبوح لك بالسبب على الفور: هذا الحطام، هذا السكير الحزين الذي زود السيارة بالوقود، كان أكفأ الرجال لديَّ. يعلم الله أني كنت رجلًا يفهم في مهنته، لكن «متَّى» كان عبقريًّا، أعظم بكثير من أي مخبر في رواياتكم».

واصل هـ. كلامه بعد أن تجاوز شاحنة تابعة لشركة «شل»: «تسع سنوات تكاد تمر على هذه الحكاية. كان «متَّى» أحد المفتشين العاملين لديَّ، أو على نحو أدق: أحد المفتشين برتبة ملازم أول، فالرتب لدينا في شرطة المقاطعات رتب عسكرية. كان، مثلي، دارسًا للقانون. حصل على درجة الدكتوراه من جامعة مدينته «بازل»، ثم عُرف باسم «متَّى إلى أبد الآبدين»، بداية في دوائر معينة كانت تربطه بها علاقات «مهنية»، ثم اشتهر بهذا الاسم لدينا نحن أيضًا. كان إنسانًا وحيدًا، يختار دومًا ملابسه بعناية، إنسانًا رسميًّا يتقيد بالشكليات، لا تربطه بأحد علاقة، لا يدخن ولا يشرب، ولكنه يتقن مهنته إتقانًا لا يعرف الرحمة أو اللين، مكروهًا وناجحًا في آنٍ واحد. لم أتمكن يومًا من سبر أغواره. كنتُ بالتأكيد الوحيد الذي يحبه، لأنني عمومًا أحب الأشخاص الواضحين، وإن كان افتقاره التام لروح الدعابة أثار أعصابي كثيرًا. ذهنه كان متوقدًا، ولكنه تحول إلى إنسان بليد المشاعر بسبب النظام الراسخ الذي يُحكم قبضته على دولتنا. كان رجلًا يتقن التنظيم، يتعامل مع جهاز الشرطة كما يتعامل المرء مع مسطرة حاسبة. لم يتزوج، ولم يتحدث أبدًا عن حياته الشخصية، وبالتأكيد لم تكن لديه حياة شخصية. لم يكن في رأسه شيء سوى مهنته التي يمارسها كخبير جنائي

قدير، ولكن بدون حماسة. بالرغم من جَلَده وإصراره بدا أن العمل يسبب له الملل، إلى أن تورط في قضية أشعلت حماسته فجأة.

كان الدكتور «متَّى» قد وصل آنذاك إلى أعلى السلم المهني. كانت هناك بعض الصعوبات في العمل معه في القسم. في تلك الفترة كان على حكومة المقاطعة أن تبدأ في التفكير في إحالتي إلى التقاعد، وبالتالي في البحث عن خليفة لي. في الحقيقة لم يكن هناك مرشح سوى «متَّى». ولكن كانت ثمة عقبات لا يمكن تجاهلها وقفت في طريق هذا الاختيار. ليس فقط لأنه لم ينتمِ إلى أحد الأحزاب. ولكن لأنه كان من المتوقع أيضًا أن يخلق فريق العمل مشاكل. من ناحية أخرى كان من الصعب على الرؤساء تجاهل موظف مجتهد مثله، ولذلك جاءنا الطلب ـ الذي وصل إلى الحكومة السويسرية من الأردن لإرسال خبير يعيد تنظيم جهاز الشرطة هناك ـ في وقته تمامًا: اقترحت مقاطعة «زيورخ» «متَّى»، وتم قبول الاقتراح في «برن» وعمَّان. تنفس الجميع الصعداء. هو أيضًا سعد باختياره، ليس فقط من الناحية المهنية. كان قد بلغ آنذاك الخمسين، وقضاء بعض الوقت في شمس الصحراء كان سيرفع من روحه المعنوية. كان ينتظر ـ بتشوق ـ سفره ورحلة

الطيران فوق جبال الألب والبحر المتوسط، وبالتأكيد كان يفكر في أن يودعنا وداعًا نهائيًّا، إذ إنه ألمح إلى نيته الانتقال إلى الدنمارك بعد ذلك ليعيش مع أخته الأرملة. كان مشغولًا بإخلاء مكتبه في مبنى شرطة المقاطعة في «كازيرنن-شتراسه» عندما جاءته مكالمة تلفونية.»

٣

واصل اللواء حكايته: «لم يفهم «متَّى» شيئًا من التقرير المبهم إلا بصعوبة كبيرة. كان الذي اتصل به من «ميجندورف» «زبونًا» من «زبائنه القدامى»، من قرية صغيرة بالقرب من «زيورخ»، بائعًا متجولًا يُدعى «فون جونتن». لم تكن لدى «متَّى» في الواقع رغبة في دراسة الحالة في آخر يوم يقضيه في مقر الشرطة بـ«كازيرنن-شتراسه». تذكرة الطيران جاهزة، وبعد ثلاثة أيام يحين موعد الإقلاع. غير أني لم أكن موجودًا لمشاركتي في مؤتمر لقادة الشرطة، ولم يكن من المتوقع أن أعود من «برن» قبل حلول المساء. كان من الضروري اتخاذ الخطوات اللازمة، فالرعونة قد تجهض كل شيء. طلب «متَّى» أن يوصلوه تلفونيًّا بقسم الشرطة في «ميجندورف». حدث ذلك في نهاية شهر أبريل، كانت زخات المطر تهطل في

الخارج، والعاصفة الربيعية وصلت إلى المدينة أيضًا، غير أن السخونة الخبيثة التي كادت تعيق الناس عن التنفس ظلت جاثمة على الصدور.

على الخط الآخر كان الشرطي «ريزن».

تساءل «متّى» في البداية مستاءً، مع أن الإجابة كانت متوقعة:

ـ هل تمطر في «ميجندورف» أيضًا؟

ازداد وجهه اكفهرارًا، وأمر بمراقبة البائع المتجول في «حانة الأيل» من دون لفت الأنظار.

وضع «متّى» السماعة.

بفضول سأل «فيلر» رئيسه:

ـ حصل شيء؟

كان الموظف قد ساعد رئيسه في حزم متاعه، ونقل مكتبة كاملة تجمعت عبر السنين.

قال المفتش:

ـ إنها تمطر في «ميجندورف» أيضًا، بلّغ فرقة النجدة.

ـ قتل؟

غمغم «متَّى» بدلًا من أن يجيب عن السؤال، ومن دون أن يبالي بشعور «فيلر» بالإهانة:

ـ ما أفظع المطر.

ولكنه قبل أن يذهب إلى وكيل النيابة، وقبل أن يركب السيارة مع الملازم «هنتسي» الذي كان ينتظر بفارغ الصبر، أخذ «متَّى» يقلب في ملف «فون جونتن». الرجل له سوابق. هتك عرض فتاة في الرابعة عشرة.»

٤

«ولكن، سرعان ما اتضح أن الأمر الصادر بمراقبة البائع المتجول كان خطأ، لم يستطع أحد أن يتنبأ بعواقبه مطلقًا. «ميجندورف» قرية صغيرة، معظم سكانها فلاحون، وإن كان البعض يعمل في المصانع المبنية في الوادي، أو في مصنع الطوب القريب. كان هناك بعض المدنيين الذين سكنوا على حواف القرية: مهندسان معماريان أو ثلاثة ونحات كلاسيكي، ولكنهم لم يلعبوا أي دور في حياة القرية. في «ميجندورف» يعرف كلٌّ الآخر، كما أن معظم السكان تربطهم علاقة قرابة. القرية كانت في صراع مع المدينة، وإنْ بشكل غير رسمي، لكن الصراع كان يدور خفية تحت السطح، لأن الغابات المحيطة بـ«ميجندورف» كانت ملك المدينة، وهي حقيقة لم تتناه يومًا إلى علم أحد من سكان «ميجندورف» الأصليين، ما سبَّب في الماضي

همومًا كبيرة لإدارة شؤون الغابات. كانت الإدارة هي التي طلبت قبل أعوام إنشاء نقطة شرطة في «ميجندورف»، وقد لُبي طلبها. إلى ذلك كان سكان المدن يغزون القرية الصغيرة في أيام الآحاد بأعداد كبيرة، أما «حانة الأيل» فكانت تجذب كُثرًا، في الليل أيضًا. إذا أخذنا كل ذلك بعين الاعتبار، فهمنا أنه كان على الشرطي المقيم في القرية أن يجيد استخدام أدوات حرفته، من ناحية أخرى كان على الشرطة أن تراعي القرية من الناحية الإنسانية. هذه الرؤية توصل إليها أيضًا الشرطي «فيجمولر» الذي أُرسل إلى القرية. كان ينحدر من عائلة قروية، يشرب كثيرًا، وببراعة كان يعرف كيف يحكم القبضة على أهالي «ميجندورف»، مقابل امتيازات عديدة بالطبع؛ وفي الحقيقة كان عليَّ التدخل لوضع حدٍّ له، غير أني رأيت في «فيجمولر» ـ أيضًا بسبب النقص في الموظفين ـ أهون الشرَّين. لقد ضمن لي هدوء الأوضاع في القرية، فتركته يحيا في هدوء. ولكن نوابه ـ عندما كان يسافر في إجازة ـ كانوا يواجهون ظروفًا صعبة للغاية. كان أهالي «ميجندورف» يعتبرون كل ما يفعلونه خطأ. وبالرغم من أن خرق النظام وسرقة الحطب في مناطق الغابات التابعة للمدينة، وكذلك العراك بالأيدي في القرية قد أضحى في عداد الأسطورة منذ الانتعاش الاقتصادي،

فإن العناد المعتاد الذي يبديه الأهالي تجاه سلطة الدولة كان قد بدأ يتوهج ثانيةً. الصعوبات واجهت «ريزن» بشكل خاص. كان قرويًا ساذجًا، يشعر بالإهانة بسرعة، ولا يعرف شيئًا اسمه الدعابة. لم يكن يستطيع مواجهة نكات أهالي «ميجندورف» الدائمة، بل وحتى في المناطق الأقل مشاكسةً، كان في الحقيقة مرهف الحس أكثر من اللازم. لخوفه من الأهالي كان يختفي عن الأنظار بمجرد أن ينتهي من دوراته التفتيشية ومشاويره الرسمية اليومية. في ظروف كهذه كان من المستحيل مراقبة البائع المتجول من دون لفت الأنظار. كان مجرد ظهور الشرطي في «حانة الأيل» ـ وهو الذي يتجنبها خوفًا ـ أمرًا لافتًا بشدة للأنظار. كما أن «ريزن» جلس على نحو استعراضي أمام البائع المتجول، لدرجة أن الصمت حل على الفلاحين المتطلعين في فضول.

سأله صاحب الحانة:

ـ قهوة؟

فأجاب الشرطي:

ـ لا شيء، أنا هنا في مهمة رسمية.

حملق الفلاحون في المتشرد بفضول، وتساءل رجل مسن:

ـ ماذا فعل إذن؟

ـ هذا شأن لا يعنيك.

كانت الحانة منخفضة السقف، مشبعة بسحب الدخان، مغارة من الخشب، الدفء فيها خانق. لم يكن صاحب الحانة قد أشعل الضوء بعد. جلس الفلاحون إلى مائدة طويلة، وأمامهم كؤوس النبيذ الأبيض ربما، أو أقداح البيرة، لم يكن المرء يرى منهم سوى ظلال آتية من ألواح النافذة الفضية التي تساقطت منها القطرات أو سيل المطر. من مكان ما تصاعدت القرقعة التي تصدر عن طاولة لعبة كرة القدم. من مكان ما تصاعد صوت آلة القمار الأمريكية وما تصدره من رنين.

كان «فون جونتن» يحتسي كأسًا من عَرَق الكرز. استولى عليه الخوف. جلس مكورًا في زاوية، ساندًا ذراعه اليمنى على يد سلته، وراح ينتظر. تخيل أنه يجلس هنا منذ ساعات طويلة. خفتت الأصوات وسكنت، غير أن السكون كان منذرًا بالخطر. ازداد الضوء النافذ من الألواح الزجاجية، خف المطر، وفجأة سطعت الشمس من جديد. غير أن الرياح لم تزل تعوي وتهز جدران البناية. تملك «فون جونتن» الفرح عندما اقتربت السيارات أخيرًا، ووقفت في الخارج.

ـ تعال معنا.

قالها ريزن ونهض. خرج الاثنان معًا. أمام الحانة كانت بانتظارهما سيارة داكنة والعربة الكبيرة لشرطة النجدة، ثم أعقبتهما سيارة الإسعاف. أشعة الشمس الباهرة كانت تسطع على ساحة القرية. وقف طفلان بجوار النافورة، في الخامسة والسادسة، بنت وولد، تحت ذراع البنت دمية. ومع الصبي سوط صغير.

تحدث «متَّى» في اتجاه شباك السيارة:

ـ اجلس بجانب السائق يا «فون جونتن»!

بعد أن جلس البائع المتجول في السيارة متنفسًا الصعداء، كأنه بلغ بر الأمان، وبعد أن ركب «ريزن» العربة الأخرى، أضاف «متَّى» قائلًا:

ـ والآن، أرنا ماذا وجدت في الغابة.»

٥

«ساروا وسط العشب المبلول، إذ إن الطريق إلى الغابة لم يكن سوى مستنقع من الأوحال، وسرعان ما أحاطوا بالجثة الصغيرة التي وجدوها وسط أوراق الشجيرات، غير بعيد عن حافة الغابة. صمت الرجال. ما زالت قطرات فضية كبيرة تتساقط من الأشجار المتأرجحة، لامعة كأنها ألماس. ألقى وكيل النيابة بسيجاره، ثم دهسه مرتبكًا. في حين لم يجرؤ «هنتسي» على إلقاء نظرة ناحية الجثة. قال «متَّى»:

ـ الشرطي لا يشيح ببصره أبدًا يا «هنتسي»!

قام الرجال بتركيب أجهزتهم.

وقال «متَّى»:

ـ سيكون من الصعب العثور على آثار بعد كل هذه الأمطار.

وفجأة وقف الولد والبنت وسط الرجال، وحملقا في الجثة، ما زالت البنت ممسكة بالدمية تحت ذراعها، والصبي بسوطه.

ـ أبعدوا الأطفال من هنا.

أمسك أحد رجال الشرطة بيدَي الطفلين وأرجعهما إلى الشارع. هناك بقيا واقفين.

من القرية بدأ الناس يتقاطرون على المكان، من بعيد كان يمكن التعرف على صاحب «الأيل» بمئزره الأبيض.

أمرَ المفتش:

ـ سيِّجوا المنطقة.

راح البعض يحرس المكان، بينما شرع آخرون بمسح المنطقة المحيطة، ثم بدأت آلات التصوير في الوميض.

ـ هل تعرف هذه الفتاة يا «ريزن»؟

ـ لا، يا سيادة المفتش.

ـ هل رأيتها مرة في القرية؟

ـ أظن، سيادة المفتش.

ـ هل تم تصوير الفتاة؟

ـ سنلتقط صورتين أخريين من أعلى.

راح «متَّى» ينتظر.

ـ آثار؟

ـ لا شيء. الوحل يغطي كل شيء.

ـ هل فحصت الأزرار؟ بصمات أصابع؟

ـ لا أمل بعد انهمار المطر بهذا الشكل.

انحنى «متَّى» بحذر. قال ملاحظًا:

ـ بمدية.

ثم التقط الفتات المتناثر ووضعه بحرص في السلة.

ـ سميط.

قال له شرطي إن أحد سكان القرية يود التحدث معه. نهض «متَّى». كان وكيل النيابة ينظر صوب حافة الغابة. هناك وقف رجل بشعر أشيب، معلقًا مظلة على ساعده الأيسر. شاحب الوجه استند «هنتسي» على شجرة زان. جلس البائع المتجول على سلته، وراح يؤكد المرة تلو الأخرى بصوت خافت:

ـ بالصدفة البحتة مررت من هنا، بالصدفة البحتة!

ـ أحضروا الرجل إلى هنا.

جاء الرجل ذو الشعر الأشيب مخترقًا الشجيرات، ووقف متسمِّرًا. لم يغمغم سوى بهذه الكلمة:

ـ يا إلهي. يا إلهي.

تساءل «متَّى»:

ـ تسمح لي أن أسألك عن اسمك؟

أجاب الأشيب بصوت خفيض:

ـ أنا «لوجنبول»، المدرس.

ثم أشاح بوجهه.

ـ هل تعرف هذه الفتاة؟

ـ إنها «جريتلي موزر».

ـ أين يسكن والداها؟

ـ في «موزباخ».

ـ بعيدًا عن القرية؟

ـ ربع ساعة.

نظر «متَّى» إليه. كان الوحيد الذي تجرأ على النظر. لم ينطق أحد بكلمة.

تساءل المعلم:

ـ كيف حدث ذلك؟

أجاب «متَّى»:

ـ هتك عرض. هل كانت الفتاة في فصلك؟

ـ في فصل الآنسة «كروم». في الصف الثالث.

ـ هل لدى «آل موزر» أطفال آخرون؟

ـ «جريتلي» طفلتهم الوحيدة.

ـ يجب أن يقوم أحد بإخبار الوالدين.

خيَّم الصمت على الرجال ثانيةً.

تساءل «متَّى»:

ـ أنتَ، حضرة المدرس؟

صمت «لوجنبول» طويلًا، ثم قال أخيرًا بتردد:

ـ لا تعتبرني جبانًا، ولكني لا أريد أن أفعل ذلك.

ثم أضاف بصوت خافت:

ـ لا أستطيع.

فرد «متَّى»:

ـ أفهم ذلك. والسيد القس؟

ـ في المدينة.

فأجاب «متَّى» بهدوء:

ـ طيب. يمكنك الانصراف يا سيد «لوجنبول».

عاد المعلم إلى الشارع. هناك كان عدد الأهالي المتجمعين في ازدياد.

نظر «متَّى» إلى «هنتسي» الذي كان ما زال يستند إلى شجرة الزان.

قال «هنتسي» بصوت خافت:

ـ من فضلك، لا تفعل، سيادة المفتش.

وكيل النيابة هز رأسه كذلك. وجه «متَّى» نظرة أخرى إلى الجثة، ثم إلى الفستان القصير الأحمر الملقى ممزقًا بين الشجيرات، مشبعًا بالدماء والأمطار، ثم قال:

ـ سأنصرف إذن.

ورفع السلة وبها السميط.»

٦

«كانت «موزباخ» تقع بالقرب من «ميجندورف» في أحد المنخفضات الصغيرة الشبيهة بالمستنقع. ترك «متّى» سيارته الرسمية في القرية، وذهب سيرًا على الأقدام. أراد أن يكسب وقتًا. رأى المنزل من بعيد. وقف والتفت إلى الوراء. كان قد سمع خطوات. الصبي والبنت مرة ثانية، بوجه متورد. لا بد أنهما استخدما طريقًا مختصرًا، وإلا فكيف يمكن تفسير ظهورهما من جديد؟

واصل «متّى» سيره. كان المنزل منخفضًا، الأسوار البيضاء والعروق الغامقة، وفوقها السقف الخشبي. خلف المنزل أشجار فاكهة، وفي الحديقة الطين الأسود. أمام المنزل راح رجل يقطع الحطب. نظر إلى أعلى ولاحظ المفتش الآخذ في الاقتراب، فسأله:

ـ أي خدمة؟

تردد «متَّى» واستولت عليه الحيرة، وفي النهاية عرَّف بنفسه، ولكي يكسب وقتًا سأل الرجلَ:

ـ السيد «موزر»؟

ـ نعم، أنا.

تساءل الرجل ثانية:

ـ ماذا تريد؟

ثم اقترب وبقي واقفًا أمام «متَّى»، والبَلْطة في يده. لا بد أنه في الأربعين تقريبًا. كان نحيلًا، مجعد الوجه. راحت عيناه الرماديتان تتفحصان المفتش. عند الباب ظهرت امرأة ترتدي هي أيضًا فستانًا أحمر. أخذ «متَّى» يفكر فيما ينبغي عليه قوله. كان يفكر منذ فترة من دون أن يستقر على رأي. ثم قدم له «موزر» يد العون. لقد رأى السلة في يد «متَّى»، فسأله:

ـ هل أصاب «جريتلي» مكروه؟

ثم وجه نظرة أخرى فاحصة إلى «متَّى».

فأجابه المفتش بسؤال:

ـ هل أرسلت «جريتلي» في مشوار؟

أجاب الفلاح:

ـ إلى جدتها في «فيرين».

راح «متَّى» يفكر: «فيرين» هي القرية المجاورة. ثم سأل:

ـ هل كانت «جريتلي» تستخدم في المعتاد هذا الطريق؟

رد الفلاح:

ـ بعد ظهر كل يوم أربعاء وسبت.

ثم تساءل بنبرة اعتراها خوف فجائي طاغٍ:

ـ لماذا تريد أن تعرف؟ ولماذا تعيد السلة إلى هنا؟

وضع «متَّى» السلة على جذع الشجرة الذي كان «موزر» يستخدمه ليقطع الحطب فوقه، ثم قال:

ـ عثرنا على «جريتلي» ميتة في الغابة بالقرب من «ميجندورف».

لم يحرك «موزر» ساكنًا. زوجته أيضًا ظلت ساكنة وهي تقف في إطار الباب بفستانها الأحمر. لاحظ «متَّى» العرق الذي تصبب فجأة من وجه الرجل الشاحب، وكيف تجمع في خيوط سميكة. كان يود لو أشاح بوجهه، ولكن هذا الوجه أسره. وهكذا ظلَّا واقفين، يحملق كل منهما في الآخر.

سمع «متَّى» نفسه يقول:

ـ وجدنا «جريتلي» مقتولة.

بدت نبرة «متَّى» خالية من أي تعاطف، وهو ما أغضبه شخصيًّا.

همس «موزر»:

ـ غير معقول. ليس من المعقول أن هناك شياطين كهذه.

ثم اهتزت قبضته التي تمسك بالبلطة.

فقال «متَّى»:

ـ هناك شياطين كهذه، يا سيد «موزر».

حملق الرجل فيه، ثم قال بصوت غير مسموع تقريبًا:

ـ أريد أن أرى طفلتي.

هز المفتش رأسه:

ـ لا أنصحك بذلك يا سيد «موزر». أعرف أن ما أقوله يبدو فظيعًا، ولكن من الأفضل ألا تذهب الآن إلى ابنتك «جريتلي».

اقترب «موزر» من المفتش حتى كاد يلتصق به، ووقف

الرجلان في مواجهة بعضهما البعض، ينظر كل منهما في عيني الآخر. ثم صرخ الفلاح:

ـ ولماذا يكون أفضل؟

صمت المفتش.

وبعد برهة أخذ «موزر» يؤرجح البلطة في يده، كأنه يريد أن يسدد ضربته، غير أنه استدار ورجع إلى زوجته التي كانت لم تزل تقف في إطار الباب، من دون حراك ومن دون أن تنطق بكلمة. راح «متَّى» ينتظر. لم تفته إيماءة أو حركة، وفجأة أدرك أنه لن ينسى هذا المشهد أبدًا. تشبث «موزر» بزوجته. وفجأة راح بدنه ينتفض من النحيب غير المسموع. أخفى وجهه بين كتفيها، بينما راحت هي تحدق في اللاشيء.

ثم وعد المفتش بصوت يشي بالعجز:

ـ مساء الغد تستطيع أن ترى «جريتلي». عندئذ ستبدو الطفلة كأنها نائمة.

في هذه اللحظة تحدثت المرأة لأول مرة.

سألت بصوت هادئ وموضوعي إلى درجة أن «متَّى» أصابه الرعب:

ـ من هو القاتل؟

ـ هذا ما سأتوصل إليه يا سيدتي.

فسددت السيدة «موزر» إليه نظرة مهددةً وآمرة:

ـ أتعدني بذلك؟

قال المفتش وقد استولت عليه فجأة الرغبة في مغادرة المكان:

ـ أعدك، يا سيدتي.

ـ ورحمة والديك؟

اندهش المفتش، ثم قال أخيرًا:

ـ ورحمة والديَّ.

ماذا تبقى له سوى أن يقول ذلك؟

ـ اذهب إذن.

قالت المرأة آمرة:

ـ لقد أقسمتَ برحمة والديك.

أراد «متَّى» أن يضيف شيئًا معزيًا، لكنه لم يجد ما يعزي.

قال بصوت خافت:

ـ أشعر بالأسف لما حدث.

ثم استدار. مشى ببطء راجعًا على الطريق الذي جاء منه. أمامه تقع قرية «ميجندورف»، وخلفها الغابة، وفوقهما السماء التي خلت الآن من الغيوم. مرة أخرى لمح الطفلين اللذين كانا يقبعان على حافة الشارع، مر بهما بخطواته المتعبة، فلاحقاه بخطى قصيرة. وفجأة تناهت إلى سمعه من البيت خلفه صرخة، كأنها صرخة حيوان. أسرع الخطو. لم يعرف هل صدر هذا النحيب من الرجل أم من المرأة.»

٧

«وجد «متَّى» نفسه، بعد عودته إلى «ميجندورف»، في مواجهة الصعوبات الأولى. سيارة النجدة الكبيرة كانت قد اتجهت إلى القرية، وهناك كانت تنتظر المفتش. تم تفتيش مكان الجريمة والمنطقة المحيطة به بكل دقة، ثم سُيِّجت ومُنع الناس من دخولها. ثلاثة رجال شرطة وقفوا في الغابة متخفين في ثياب مدنية. كانوا مكلفين بمراقبة المارة، فربما يستطيعون معرفة الجاني. بقية الفريق توزع على أنحاء المدينة. السماء كانت صافية من الغيوم، غير أن الأمطار لم تلطف الجو. ما زال الدفء الربيعي جاثمًا على القرى والغابات، وما زالت الريح تهب هبات لينة على فترات متقطعة. هذه السخونة الثقيلة وغير الطبيعية تفسد مزاج الناس وتجعلهم متوترين وغير صبورين. أُضيئت مصابيح الشوارع من الآن، على

الرغم من أن النهار لم يغب بعد. تقاطر الفلاحون إلى المكان. اكتشفوا «فون جونتن». كانوا يعتبرونه الجاني، فالشبهات تحوم دومًا حول الباعة المتجولين. ظنُّوا أنهم قد اعتقلوه بالفعل، فأحاطوا بسيارة النجدة التي جلس البائع المتجول بداخلها في سكون. تكور مرتعشًا بين الشرطيين الجالسين كأنهما متجمدان. واصل أهالي «ميجندورف» اقترابهم، ثم ضغطوا وجوههم على زجاج السيارة. حار رجال الشرطة ولم يعرفوا ما يتوجب عليهم فعله. خلف سيارة النجدة، كان وكيل النيابة يجلس في سيارته الرسمية التي حاصرها الأهالي أيضًا، كما التفوا حول سيارة الطبيب الشرعي الذي جاء من «زيورخ»، وكذلك سيارة الإسعاف البيضاء ذات الصليب الأحمر التي ضمت الجثة الصغيرة. وقف الرجال مهددين، وإن كانوا صامتين. النساء التصقن بجدران البيوت. خيم الصمت عليهن أيضًا. تسلق الأطفال على حافة بئر القرية. غضب مكتوم أهوج جمع شمل الفلاحين. يريدون الثأر، العدالة. حاول «متَّى» أن يشق طريقه إلى سيارة النجدة، ولكن ذلك كان من المستحيلات. أفضل شيء هو أن يقوم بزيارة رئيس المجلس القروي. سأل عنه. لم يجبه أحد. لم يسمع سوى بضع كلمات تهديد خافتة. فكر المفتش، ثم ذهب إلى الحانة. لم يخطئ،

كان رئيس المجلس القروي يجلس في «الأيل». رجل قصير ثقيل لا يوحي منظره بالصحة. كان يحتسي كأس نبيذ «فلتلينر» تلو الأخرى، مختلسًا النظر من الشباك المنخفض.

تساءل الرجل:

ـ ماذا أفعل يا حضرة المفتش؟ الناس عنيدون. لديهم الشعور بأن الشرطة لا تكفي، وأن عليهم أن يقيموا العدل بأنفسهم.

ثم تنهد قائلًا:

ـ كانت «جريتلي» فتاة طيبة. كنا نحبها.

طفرت الدموع من عيني رئيس المجلس القروي.

رد «متَّى»:

ـ البائع المتجول بريء.

ـ لم يكن عليكم، إذن، أن تقبضوا عليه.

ـ لم نقبض عليه. نحن بحاجة إليه كشاهد.

صوَّب رئيس المجلس القروي نظرة عابسة إلى «متَّى» قائلًا:

ـ إنكم تتحججون فحسب، نحن نخمن ما حدث.

ـ كرئيس للمجلس عليك أولًا أن تضمن لنا خروجًا آمنًا من القرية.

أفرغ الرئيس كأسًا أخرى من النبيذ الأحمر في جوفه من دون أن ينطق بكلمة.

تساءل «متَّى» ساخطًا:

ـ والآن؟

ظل رئيس المجلس على عناده، ودمدم قائلًا:

ـ لا بد أن ينال البائع المتجول جزاءه!

أصبح المفتش أكثر وضوحًا:

ـ إذن، سنخوض صراعًا قبل أن يحدث ذلك أيها الرئيس.

ـ تريدون أن تخوضوا صراعًا من أجل شخص يقتل ليشبع شهواته؟

ـ علينا إحلال النظام سواء كان مذنبًا أو بريئًا.

راح رئيس المجلس القروي يتمشى جيئة وذهابًا في الحانة منخفضة السقف، وقد استولى عليه الحنق. ولأن البار كان يخلو من الخدم أخذ يصب لنفسه نبيذًا. كان يتجرعه في سرعة فائقة حتى إن خطوطًا سميكة حمراء سالت على قميصه. ما زال الهدوء سيد الموقف في الخارج، غير أن

صفوف المحتشدين تماسكت وتراصت بشكل محكم عندما حاول سائق سيارة الشرطة الانطلاق.

في تلك اللحظة دخل وكيل النيابة الحانة. كان قد اخترق صفوف أهالي «ميجندورف» بشق الأنفس. لم تعد ملابسه على هندامها السابق. ارتعب رئيس المجلس لرؤيته. كان ظهور وكيل النيابة أمرًا مزعجًا له، فهو كإنسان عادي يقابل أبناء هذه المهنة بالشك والريبة.

بدأ وكيل النيابة حديثه:

ـ حضرة رئيس المجلس، يبدو أن سكان «ميجندورف» يريدون أن ينفذوا إعدامًا بدون محاكمة. لا أرى طريقًا آخر سوى استدعاء قوات إضافية. سيجعلكم هذا تثوبون إلى رشدكم.

قال «متَّى» مقترحًا:

ـ فلنحاول التحدث مع الناس من جديد.

نقر وكيل النيابة بسبابته اليمنى على صدر رئيس المجلس القروي، ثم دمدم:

ـ إذا لم تجعل الناس ينصتون إلينا فورًا، فعليك أن تتحمل التبعات.

في الخارج بدأت أجراس الكنيسة تقرع كالعاصفة. من كافة الأنحاء كان الناس يتوافدون على الجمع المحتشد. حتى رجال الإطفاء اقتربوا ووقفوا في مواجهة الشرطة. ثم سُمعت الشتائم الأولى. حادة، متفرقة.

ـ شرطي سافل، منحط!

أصبح رجال الشرطة على أهبة الاستعداد. كانوا يتوقعون هجوم الحشود التي ازدادت سخطًا. غير أن العجز شل الجنود، كما شل أهالي «ميجندورف». كانت مهام رجال الشرطة تنحصر في فرض النظام أو التدخل في عمليات محددة، أما هنا فكان عليهم مواجهة المجهول. غير أن الفلاحين تخشبوا في أماكنهم، وعاد إليهم الهدوء من جديد. كان وكيل النيابة قد خرج من «الأيل» بصحبة رئيس المجلس القروي و«متَّى». ثمة درج حجري بدرابزين حديدي يقود إلى الحانة.

بدأ رئيس المجلس كلامه:

ـ يا أهالي «ميجندورف». أرجوكم أن تنصتوا لوكيل النيابة، السيد «بوركهارد».

لم يصدر من الحشد أي رد فعل ملحوظ. ظل الفلاحون والعمال يقفون كما كانوا، صامتين، مُهددين، لا تصدر

عنهم حركة أو إيماءة، تحت سماء كستها بشائر المساء البهي.

راحت مصابيح الشوارع تتأرجح كقمر باهت فوق الميدان. عقد أهالي «ميجندورف» العزم على إخضاع الرجل الذي يعتبرونه قاتلًا تحت سيطرتهم. بدت سيارات الشرطة في خضم الناس كحيوانات ضخمة داكنة اللون، تحاول بين الحين والآخر التحرك من مكانها. كانت المحركات تعوي، ثم تحتضر عاجزة. لا فائدة. كل شيء شملته حيرة ثقيلة تجاه ما حدث اليوم، بيوت القرية الهرمية، الميدان، جموع الناس، وكأن جريمة القتل سممت العالم كله.

بدأ وكيل النيابة بصوت خافت ومضطرب، غير أن الجمع سمع كل كلمة من كلامه:

ـ يا جماعة. يا أهالي «ميجندورف»، هذه الجريمة البشعة هزتنا من الأعماق. لقد قُتلت «جريتلي موزر». نحن لا نعرف من ارتكب الجريمة...

لم يستطع وكيل النيابة أن يكمل كلامه.

ـ سلموه لنا!

ارتفعت القبضات، وعلا الصفير.

تسمرت أنظار «متَّى» على الجماهير.

أمر وكيل النيابة:

ـ بسرعة يا «متَّى» اتصل واستدعِ قوات إضافية.

صرخ فلاح طويل ونحيل بوجه لوَّحته الشمس لم يُحلق منذ أيام:

ـ «فون جونتن» هو القاتل! لقد رأيته، لم يكن غيره في الوادي الصغير!

إنه الفلاح الذي كان يعمل في حقله أثناء وقوع الجريمة.

سار «متَّى» إلى الأمام، ثم صاح:

ـ يا جماعة، أنا المفتش «متَّى». نحن على استعداد لتسليم البائع.

كانت المفاجأة هائلة، فحل صمت القبور على الواقفين.

فحَّ وكيل النيابة موجهًا كلامه إلى المفتش وقد تملكه الاضطراب:

ـ هل جُننت؟

غير أن «متَّى» واصل كلامه قائلًا:

ـ منذ قرون وقرون والمحاكم هي التي تتولى في بلادنا محاكمة المجرمين إذا كانوا مذنبين، فإذا كانوا أبرياء يُطلق سراحهم. لقد قررتم الآن أن تشكلوا بأنفسكم

محكمة كهذه. لا نريد أن نتساءل هنا عما إذا كان ذلك من حقكم. لقد انتزعتم هذا الحق.

كان «متَّى» يتحدث بوضوح وصفاء. الفلاحون والعمال يصغون إليه بانتباه. كل كلمة لها وزن بالنسبة لهم. أخذهم «متَّى» مأخذ الجد، فأخذوا كلامه هم أيضًا مأخذ الجد.

ـ ولكنني لا بد أن أطلب منكم ما أطلبه من كل محكمة: العدل. فبديهي أننا لن نسلمكم البائع المتجول إلا إذا كنا على قناعة بأنكم تريدون العدل.

صرخ أحدهم:

ـ نريده!

ـ على محكمتكم أن تفي بشرط إذا أرادت أن تكون محكمة عادلة. هذا الشرط هو أن تتجنبوا الظلم. عليكم أنتم أيضًا أن تلتزموا بهذا الشرط.

صاح أحد المشرفين على العمال في مصنع الطوب:

ـ موافقون.

ـ لذلك عليكم أن تفحصوا ما إذا كان من العدل أم من الظلم اتهام «فون جونتن» بالقتل. كيف نشأت الشبهات حوله؟

صرخ أحد الفلاحين:

ـ لقد سُجن قبل ذلك.

ـ هذا يزيد من الاشتباه بأن يكون «فون جونتن» هو القاتل. ولكن، ليس هذا دليلًا على أنه ارتكب الجريمة بالفعل.

صاح من جديد الفلاح ذو الوجه الملوَّح الخشن:

ـ لقد رأيته في الوادي الصغير.

طالبه المفتش:

ـ اصعد إلينا.

تردد الفلاح.



صاح أحدهم:

ـ اذهب يا «هايري». لا تكن جبانًا.

وَجِلًا صعد الفلاح إليهم. كان رئيس المجلس ووكيل النيابة قد تراجعا خطوات من أمام مدخل «الأيل»، وبذلك استطاع «متَّى» أن يقف وحده مع الفلاح الذي بادره بالقول:

ـ ماذا تريد مني؟ اسمي «هايري بنتس».

تسمرت أنظار أهالي «ميجندورف» على الاثنين مترقبين ما سيحدث. كان رجال الشرطة قد أنزلوا هراواتهم

المطاطية ثانيةً، وراحوا هم أيضًا يراقبون مكتومي الأنفاس ما يحدث، أما شبان القرية فصعدوا على سلم سيارة الإطفاء الذي كان قد ارتفع حتى منتصفه.

بدأ المفتش كلامه قائلًا:

ـ أنت راقبت البائع المتجول «فون جونتن» في الوادي الصغير يا سيد «بنتس». هل كان وحده؟

ـ كان وحده.

ـ ماذا تعمل يا سيد «بنتس»؟

ـ أزرع بطاطا مع عائلتي.

ـ ومنذ متى فعلت ذلك اليوم؟

ـ منذ العاشرة صباحًا. كما أنني تغديت مع عائلتي في الحقل.

ـ ولم تر أحدًا آخر غير البائع المتجول؟

قال الفلاح مؤكدًا:

ـ لا أحد. وأقسم على ذلك.

صاح أحد العمال:

ـ هذا كلام فارغ يا «بنتس»! في الثانية مررتُ بحقل البطاطا الذي تملكه!

عاملان آخران أكدا كلامه. هما أيضًا مرًّا بالدراجة في الوادي الصغير حوالي الساعة الثانية.

صرخ أحد الفلاحين في اتجاه الواقفين بالأعلى:

ـ وأنا عبرت الوادي بعربة النقل التي تجرها الخيل، يا مغفل. لكنك تعمل دائمًا كالمجنون، يا بخيل. على عائلتك أن تعمل ليل نهار حتى تقوست ظهورهم جميعًا. لو مرت أمامك مئات النساء العاريات لما التفت إليهن.

تعالت الضحكات. قال «متَّى»:

ـ معنى هذا أن البائع المتجول لم يكن وحده في الوادي. علينا إذن أن نواصل بحثنا. بموازاة الغابة هناك شارع يؤدي إلى المدينة. هل سار أحد على هذا الطريق؟

صاح أحدهم:

ـ «فريتس جربر».

قال فلاح يجلس في خمول على مضخة إطفاء الحريق:

ـ أنا سرت على هذا الطريق، بعربة الخيل.

ـ متى؟

ـ الساعة الثانية.

قال المفتش في لهجة تقريرية:

ـ من هذا الشارع يتفرع طريق يعبر الغابة ويمر بمكان وقوع الجريمة. هل لمحت أحدًا يا «جربر»؟

غمغم الفلاح:

ـ لا.

ـ أو ربما لاحظت سيارة واقفة؟

تعجب الفلاح، ثم قال مضطربًا:

ـ أظن.

ـ متأكد؟

ـ شيء ما كان هناك.

ـ ربما سيارة «مرسيدس» رياضية حمراء؟

ـ ممكن.

ـ أم «فولكس فاجن» رمادية؟

ـ ممكن أيضًا.

ـ إجابتك غير محددة على الإطلاق.

فقال الفلاح معترفًا:

ـ أنا كنت أجلس شبه نائم على العربة. كلنا نفعل ذلك في هذا الجو الحار.

فقال «متَّى» في لهجة لائمة:

ـ عليَّ إذن أن أنتهز هذه الفرصة لألفت نظرك إلى أنه لا يصح أن ينام أحد على عربة خيل في طريق عام.

رد الفلاح:

ـ ولكن الخيل تنتبه إلى الطريق.

انفجرت ضحكات الجميع. ثم تابع «متَّى» كلامه بلهجة تقريرية:

ـ لقد أخذتم فكرة الآن عن الصعوبات التي تواجهونها كقضاة. من الجائز جدًّا ألا تكون الجريمة ارتكبت والطريق خال. إن مكان الجريمة لا يبعد عن العائلة التي كانت تعمل في الحقل سوى خمسين مترًا. لو كانت العائلة يقظة لما حدثت هذه المصيبة. ولكنها كانت خالية البال لأنها لم تأخذ مطلقًا في الحسبان إمكانية وقوع جريمة كهذه. فهي لم تر الفتاة عندما جاءت، ولا الآخرين الذين مروا بالطريق. البائع المتجول لفت نظرهم، هذا هو كل شيء. ولكن «جربر» أيضًا كان يغفو على عربته، وهو الآن لا يستطيع أن يدلي بقول واحد مفيد يتسم بالدقة اللازم توافرها. هذا هو الوضع. هل هذا كافٍ لإدانة البائع؟ عليكم أن تسألوا أنفسكم هذا

السؤال. لقد أبلغ هو الشرطة، هذا أمر يُحسب له. أنا لا أعرف كيف ستتصرفون كقضاة، ولكني أريد أن أقول لكم كيف نريد نحن رجال الشرطة أن نتصرف.

توقف المفتش عن الكلام. كان يقف الآن وحده أمام أهالي «ميجندورف». استولى الارتباك على «بنتس»، فعاد ليقف وسط الحشود.

ـ علينا وضع كل متهم، بغض النظر عن مكانته، تحت الفحص الدقيق، وأن نسير وراء كل الآثار المحتملة، ليس هذا فحسب، بل إننا سنشرك شرطة الدول الأخرى إذا لزم الأمر. أنتم ترون، ليس لدى محكمتكم إلا القليل، أما نحن فتحت تصرفنا جهاز ضخم للكشف عن الحقيقة. عليكم أن تقرروا الآن ما سيحدث.

ساد الصمت. أمعن أهالي «ميجندورف» في التفكير. ثم تساءل أحد رؤساء العمال:

ـ وهل ستسلمونا البائع فعلًا؟

فأجاب «متَّى»:

ـ كلمة شرف! إذا كنتم تصرون على تسلمه.

استولت الحيرة على أهالي «ميجندورف». لقد تركت كلمات المفتش أثرها في نفوسهم. تملكت العصبية وكيل

النيابة. كان ينظر إلى كل ما حدث نظرة مستريبة، غير أنه تنفس الصعداء.

صاح أحد الفلاحين:

ـ خذوه معكم.

في صمت أفسح الأهالي طريقًا ضيقًا. أشعل وكيل النيابة سيجار «بريساجو» وهو يشعر بالخلاص. ثم قال:

ـ لقد خاطرت يا «متّى». تخيل لو كان عليك أن تلتزم بكلمتك.

فأجاب المفتش باسترخاء:

ـ كنت أعرف أن هذا لن يحدث.

ـ نأمل ألا تقطع أبدًا على نفسك عهدًا يتوجب عليك تنفيذه.

قال وكيل النيابة هذه الجملة وأشعل سيجاره بعود ثقاب آخر، ثم ألقى التحية على رئيس المجلس القروي، وتوجه إلى السيارة التي استطاعت الآن أن تشق طريقها وسط الجموع.»

٨

«لم يركب «متَّى» السيارة مع وكيل النيابة، بل صعد إلى البائع المتجول. أفسح رجال الشرطة له مكانًا في السيارة. كانت الحرارة خانقة داخل السيارة الكبيرة. حتى تلك اللحظة لم يجرؤ أحد على إنزال زجاج النافذة. ظل أهالي «ميجندورف» واقفين على الرغم من إفساحهم الطريق. قبع «فون جونتن» منكمشًا خلف السائق، فجلس «متَّى» بجانبه.

قال البائع مؤكدًا:

ـ أنا بريء.

رد «متَّى»:

ـ بالطبع.

قال «فون جونتن» هامسًا:

ـ لا أحد يصدقني. ولا الشرطة تصدقني.

هز المفتش رأسه نافيًا:

ـ أنت تتوهم ذلك فقط.

لم تهدئ هذه الكلمات البائع.

ـ أنت أيضًا لا تصدقني يا دكتور.

شرعت السيارة تتحرك. جلس رجال الشرطة في صمت. كان الليل قد حل، فألقت مصابيح الشارع ضوءًا ذهبيًّا على الوجوه المتحجرة. أحس «متّى» بالريبة التي يكنها كل فرد للبائع المتجول، أحس بالشكوك التي تصاعدت. شعر نحوه بالشفقة، فقال:

ـ أصدقك يا «فون جونتن».

غير أنه أحس أنه ليس مقتنعًا تمامًا بما يقول.

ـ أعرف أنك بريء.

اقتربت السيارة من المنازل المبنية على أطراف القرية. قال المفتش:

ـ لا بد من عرضك على رئيس الشرطة، فأنت أهم شاهد لدينا.

غمغم البائع:

ـ طيب.

ثم همس ثانية:

ـ أنت أيضًا لا تصدقني.

ـ كلام فارغ!

غير أن البائع تشبث برأيه، ولم يقل سوى:

ـ أنا أعرف ذلك.

نطق العبارة بصوت خافت، تقريبًا لا يُسمع، ثم راح يحملق في الإعلانات الضوئية الحمراء والخضراء التي كانت تلمع كنجوم شبحية داخل السيارة المنطلقة بسرعة متوسطة.»

٩

«كانت هذه هي الوقائع التي عُرضت عليَّ في مقر الشرطة بـ«كازيرنن-شتراسه» بعد عودتي إلى «برن» بالقطار الذي يصل الساعة السابعة والنصف. كانت ثالث جريمة قتل أطفال من نوعها. قبل عامين قُتلت فتاة في مقاطعة «شفيتس» بمدية، وقبل خمس سنوات فتاة أخرى في «سان جالن»، ولا أثر للجاني. أمرت بعرض البائع المتجول عليَّ. كان الرجل في الثامنة والأربعين، قصيرًا، بدينًا، لا تبدو عليه علامات الصحة، وبالتأكيد في أحواله العادية ثرثار ووقح، غير أن الخوف استولى عليه الآن. كانت أقواله في البداية واضحة. كان يرقد على حافة الغابة بعد أن خلع الحذاء ووضع سلة البضائع على العشب. كان ينوي المرور على «ميجندورف» لعرض بضاعته من فرش وحمالات سراويل وشفرات حلاقة وأربطة أحذية، إلخ،

ولكن في الطريق عرف من ساعي البريد أن «فيجمولر» في إجازة وأن «ريزن» ينوبه. لذلك تردد، وألقى بنفسه على العشب؛ إنه يعرف السادة رجال الشرطة، ويعرف أن الشباب خصوصًا تصيبهم غالبًا حمى النشاط. بدأ يغفو في مرقده. كان شارع يشق الوادي الصغير الظليل. ليس بعيدًا عنه كانت عائلة قروية تعمل في الحقل، يدور حولها كلب. كانت الوجبة التي تناولها في «مطعم الدب» في قرية «فيرين» فاخرة، صحن «برن» من النقانق واللحوم المشكلة ونبيذ من منطقة «تفان»؛ إنه يعشق الطعام الوفير، وبمقدوره أن يشبع رغبته، صحيح أنه يتجول بين القرى غير حليق ومهمل الهيئة ورث الثياب، لكن مظهره يخدع الرائي، فهو واحد من الباعة المتجولين الذين يكسبون جيدًا ويدخرون بعض المال. كما أنه شرب كمية كبيرة من البيرة، وأكل ـ بعد أن استلقى على العشب ـ علبتين من الشوكولاتة ماركة «ليند». ثم فعلت العاصفة المقتربة وهبات الريح فعلها، فاستغرق تمامًا في النوم. ولكن لم تمر فترة طويلة حتى أيقظته صرخة، صرخة عالية من بنت صغيرة. عندما وجه نظرة ناعسة إلى الوادي، بدا له أن العائلة التي تعمل في الحقل قد أصاخت بسمعها للحظة، غير أنها ما لبثت أن عادت إلى وضعها المنحني وعاد الكلب يدور حولها. إنه طائر ما، هكذا ظن، بومة

صغيرة ربما، ما أدراه هو بذلك. هدّأ هذا التفسير من روعه. واصل غفوته، ولكنه فجأة ـ وبعد أن انتبه إلى السكون التام الذي حل مرة واحدة في الغابة ـ لاحظ أن السماء تكاثرت فيها الغيوم الداكنة. عندئذ لبس حذاءه وعلق السلة حول رقبته شاعرًا بالارتياب وعدم الرضا لأنه فكر مرة ثانية في صرخة الطائر الغامضة. لذلك قرر ألا يحاول أن يجرب حظه مع الشرطي «ريزن»، وأن يصرف نظره اليوم عن «ميجندورف». لقد كانت دومًا قرية غير مجزية بالنسبة له. أراد أن يعود إلى المدينة، فمشى في الغابة ليختصر الطريق إلى محطة السكك الحديدية، وأثناء سيره عثر على الفتاة القتيلة. عندئذ ركض إلى «الأيل» في «ميجندورف» وأبلغ «متّى»، من دون أن يقول شيئًا للفلاحين، لأنه خشي أن تحوم حوله الشبهات.

كانت هذه أقواله. تركت الرجل ينصرف، من دون أن أطلق سراحه. ربما لم يكن تصرفي سليمًا فوكيل النيابة لم يصرح بالحبس الاحتياطي. لم يكن لدينا وقت نضيعه في الشكليات. بدت لي حكايته مطابقة للحقيقة، ولكن كان علينا أن نختبر صحتها، كما أن لـ«فون جونتن» سوابق. كان مزاجي سيئًا. خامرني شعور غير مريح وأنا أدرس هذه الجريمة؛ لقد سار كل شيء على نحو خاطئ،

ولكنني لم أعرف مكمن الخطأ على وجه التحديد. كان هذا شعوري ببساطة. خلوت بنفسي في «البوتيك»، كما اعتدت أن أقول عندما أذهب إلى الغرفة الصغيرة المعبقة بالدخان التي تجاور مكتبي الرسمي. أرسلت واحدًا لشراء زجاجة «شاتونوف دو باب» من مطعم مجاور للجسر على نهر «الزيل»، واحتسيت بضع كؤوس. الفوضى العارمة تسود هذه الغرفة دومًا، لا أريد أن أخفي ذلك، فالكتب والملفات تكومت فوق بعضها البعض، عمدًا بالطبع، إذ إنني أرى أنه من واجب كل فرد أن ينشئ جزيرة صغيرة من الفوضى في قلب هذه الدولة المنظمة، حتى وإن فعل ذلك سرًّا. ثم أمرت بإحضار الصور الفوتوجرافية. كانت فظيعة. رحتُ أدرس الخريطة. لم يكن من الممكن اختيار مكان لارتكاب الجريمة أكثر خسة من هذا المكان. ليس من الممكن نظريًا تحديد ما إذا كان القاتل من أهالي «ميجندورف» أو من القرى المحيطة أو من المدينة، ما إذا كان قد جاء سيرًا على قدميه أو بالقطار. كل الاحتمالات واردة.

مر «متَّى» عليَّ. قلت له:

ـ أنا آسف، أن يتحتم عليك دراسة جريمة حزينة كهذه في آخر يوم لك هنا.

ـ هذه هي مهنتنا، سيادة اللواء.

فأجبته وأنا أعيد الصور إلى المظروف:

ـ عندما أتفحص صور مكان الجريمة، أود لو استطعت إرسال القاتل إلى الجحيم.

كنت أشعر بالغضب، ولم أستطع ربما التحكم في مشاعري تمامًا. كان «متّى» أفضل المفتشين لديَّ، ما زلت مصرًّا على استخدام هذا الوصف الأثير لديَّ، وإن كان غير صحيح، في تلك اللحظة كرهت كراهيةً شديدة فكرة خروجه من العمل.

بدا كأنه يحدس ما أفكر فيه، فقال:

ـ أعتقد أن أفضل ما يمكن فعله هو تسليم الملف لـ«هنتسي».

ترددت. كنت سأستجيب لهذا الاقتراح على الفور، لو لم يكن الأمر متعلقًا بجريمة قتل لإشباع الشهوة. الوضع بالنسبة لنا أسهل في كل جريمة أخرى. كل ما نحتاج إليه هو التفكير في الدوافع، العوز المالي، الغيرة، وعلى الفور تضيق دائرة المشتبه بهم. أما فيما يخص القتل لإشباع الشهوة، فإن هذه الطريقة عديمة النفع. في تلك الحالات قد يقوم شخص برحلة عمل ويرى بنتًا أو صبيًّا، فينزل

من السيارة ـ لا شهود ولا أحد يراقب ما يحدث. وفي المساء يجلس في بيته، ربما في «لوزان» أو «بازل» أو في أي مكان آخر، أما نحن فنقف حائرين بدون أي مؤشرات تقودنا إلى الفاعل.

لم يشاطرني «متَّى» شكوكي. خاطبني قائلًا:

ـ لقد عمل ثلاثة أعوام تحت قيادتي، وتعلم حرفته مني. لا أتخيل أحدًا أفضل منه يستطيع أن يخلفني. سيقوم بواجباته كما كنت سأقوم بها. كما أنني سأرافقه غدًا.

أمرت باستدعاء «هنتسي» ثم أمرته أن يشكل مع الحارس «ترويلر» الفريق المصغر المكلف بالكشف عن جريمة القتل. كان مبتهجًا، فقد كانت هذه هي «حالته الأولى» التي يعمل فيها مستقلًا.

ـ اشكر «متَّى»!

غمغمتُ بذلك ثم سألته عن حالة الفريق المعنوية. كنا نسبح في المجهول من دون أي مؤشرات أو نتائج، وكان من المهم ألا يشعر الفريق بحيرتنا. أجاب «هنتسي»:

ـ الفريق مقتنع بأننا قبضنا على القاتل.

ـ البائع المتجول؟

ـ الشبهات حوله لا يمكن تبديدها بسهولة. وعلى كل حال فإن «فون جونتن» قد ارتكب من قبل جنحة آداب.

تدخل «متَّى» قائلًا:

ـ مع فتاة في الرابعة عشرة، هذا أمر مختلف تمامًا.

فاقترح «هنتسي»:

ـ علينا أن نحقق مع الرجل تحقيقًا جماعيًّا.

قلت حاسمًا:

ـ لا داعي للعجلة. لا أعتقد أن للرجل علاقة بالقتل. إنه سمج، لا أكثر، وهذا يثير الشبهات على الفور. ولكن هذا الشك ذاتي، يا سادتي، وليس دليلًا جنائيًّا. لا نريد أن نستسلم له.

وبهذه الجملة ودعت الرجلين من دون أن يتحسن مزاجي.»

١٠

«وظفنا كل الرجال لدينا للكشف عن الفاعل. في الليلة نفسها وفي الأيام التالية، أمرنا رجالنا بأن يسألوا عما إذا كانت هناك آثار من الدماء في سيارة ما، وبعد ذلك سألوا في المغاسل أيضًا. ثم قمنا بالتحقق من وجود كل الأشخاص الذين انتهكوا في يوم ما مواد قانونية معينة في مكان آخر غير مكان الجريمة وقت ارتكابها. في «ميجندورف» انتشر رجالنا في الغابة التي وقعت فيها جريمة القتل وبصحبتهم الكلاب البوليسية، وأجهزة الكشف عن الألغام أيضًا. قاموا بفحص الأحراج بحثًا عن أي آثار، آملين أن نعثر خصوصًا على سلاح الجريمة. قاموا بالمسح المنهجي لكل متر مربع، هبطوا المنحدرات، وبحثوا في قاع الغدير. تم جمع الأشياء التي عثروا عليها، وتم تمشيط الغابة في المنطقة وصولًا إلى قرية «فيرين».

شاركت أنا أيضًا في البحث والتحري في «ميجندورف» وهو ما لا أفعله في المعتاد. حتى «متَّى» بدا قلقًا. كان يومًا ربيعيًّا جميلًا في الحقيقة، خفيفًا، بدون رياح ساخنة ثقيلة، مع ذلك بقي مزاجنا كئيبًا. راح «هنتسي» يحقق في «الأيل» مع الفلاحين وعمال المصنع، أما نحن فكنا بصدد الذهاب إلى المدرسة. اختصرنا الطريق وسرنا وسط منطقة تغطيها الحشائش وأشجار الفواكه. كانت بعض الأشجار مزدهرة وفي كامل بهائها. من مبنى المدرسة تصاعد ترتيل: «خذ بيدي وقدني». كان الملعب الرياضي أمام مبنى المدرسة خاليًا. طرقت باب الفصل الذي تصاعد منه ترتيل الكورال ثم دخلنا.

كان الترتيل صادرًا من بنات وصبيان. أطفال تتراوح أعمارهم بين السادسة والثامنة. الفصول الدراسية الثلاثة الأولى. كانت المعلمة توجههم، وعندما رأتنا أنزلت يديها وتفحصتنا بريبة. توقف الأطفال عن الترتيل.

ـ الآنسة «كروم»؟

ـ نعم؟

ـ هل أنت معلمة «جريتلي موزر»؟

ـ ماذا تريد مني؟

كانت الآنسة «كروم» في الأربعين من عمرها تقريبًا، نحيلة وذات عينين واسعتين تفيضان مرارة.

عرَّفت بنفسي ثم التفتُّ إلى الأطفال قائلًا:

ـ حياكم الله يا أطفال!

نظر الأطفال ناحيتي بفضول، وأجابوا:

ـ حياك الله!

ـ كنتم تنشدون ترتيلة جميلة.

قالت المعلمة موضحةً:

ـ نحن نتدرب على الترتيلة التي سننشدها في الكورال عند دفن «جريتلي».

في حوض الرمل رأيت تركيبًا يمثل جزيرة «روبنسون»، وعلى الجدران رسوم أطفال. فسألت مترددًا:

ـ ما هي صفات «جريتلي»؟

أجابت المعلمة:

ـ كلنا كنا نحبها.

ـ هل كانت ذكية؟

ـ كانت طفلة ذات خيال واسع جدًّا.

ترددتُ من جديد.

ـ أريد أن أوجه بضعة أسئلة إلى الأطفال.

ـ تفضل.

وقفتُ أمام الفصل. معظم البنات لهن ضفائر، ويرتدين مرايل ملونة. قلت لهم:

ـ أكيد سمعتم بما حدث لـ«جريتلي موزر». أنا من الشرطة، اللواء، يعني مثل رئيس فرقة جنود، وواجبي هو البحث عن الرجل الذي قتل «جريتلي». لا أريد أن أتحدث معكم كأطفال، بل ككبار. الرجل الذي نبحث عنه مريض. كل الرجال الذين يفعلون شيئًا كهذا مرضى. ولأنهم مرضى فإنهم يحاولون استدراج الأطفال إلى مخبأ ما، وهناك يجرحونهم، يستدرجونهم مثلًا إلى غابة أو قبو، أو أي مكان آخر بعيد عن الأنظار، وهذا شيء يحدث كثيرًا جدًّا؛ فلدينا سنويًّا أكثر من مئتي حالة في المقاطعة. ويحدث في بعض الأحيان أن يجرح هؤلاء الرجال طفلًا جرحًا بالغًا فيموت كما حدث مع «جريتلي». لذلك لا بد من حبس هؤلاء الرجال. إنهم خطرون للغاية، ولا يمكن تركهم يعيشون في حرية. ستتساءلون الآن: لماذا لا نحبسهم قبل أن تحدث حادثة كالتي وقعت لـ«جريتلي»؟ لأنه ليست هناك وسيلة

للتعرُّف على هؤلاء الرجال المرضى. مرضهم داخلي وليس ظاهريًا.

كان الأطفال يصغون مكتومي الأنفاس. أكملت قائلًا:

ـ لا بد أن تساعدوني. لا بد أن نعثر على الرجل الذي قتل «جريتلي موزر»، وإلا سيقتل بنتًا أخرى.

كنت أقف وسط الأطفال تمامًا.

ـ هل حكت «جريتلي» عن رجل غريب تحدث معها؟

صمت الأطفال.

ـ هل لفت نظركم شيء غريب في «جريتلي» خلال الفترة الأخيرة؟

لم يلحظ الأطفال شيئًا.

ـ هل كان مع «جريتلي» في الفترة الأخيرة شيء غالٍ لم تكن تمتلكه من قبل؟

لم يُجب الأطفال بشيء.

ـ من هي أقرب صديقة لـ«جريتلي»؟

همست فتاة ضئيلة بشعر بني وعينين عسليتين:

ـ أنا.

سألتها:

ـ ما اسمك؟

ـ «أورزولا فلمان».

ـ أنت إذن يا «أورزولا» أقرب صديقة لـ«جريتلي».

ـ كنا نجلس معًا.

تحدثت الفتاة بصوت خافت للغاية، ولذلك توجب عليَّ الانحناء ناحيتها.

ـ ولم يلفت نظرك شيء؟

ـ لا.

ـ لم تقابل «جريتلي» أحدًا؟

أجابت الفتاة:

ـ كان هناك شخص.

ـ من هو؟

قالت الفتاة:

ـ ليس إنسانًا.

تعجبت لهذه الإجابة.

ـ ماذا تقصدين بذلك يا «أورزولا»؟

أجابت الفتاة بصوت خافت:

ـ هي قابلت عملاقًا.

ـ عملاق؟

ـ نعم.

ـ تريدين أن تقولي إنها قابلت رجلًا طويلًا؟

ـ لا، أبي رجل طويل، لكنه ليس عملاقًا.

ـ وما طوله إذن؟

قالت الفتاة:

ـ كالجبل. وأسود تمامًا.

ـ وهل أهدى هذا العملاق «جريتلي» شيئًا؟

ـ نعم.

ـ ماذا أهداها؟

ـ قنافذ صغيرة.

سألتها محتارًا:

ـ قنافذ؟ ماذا تقصدين هذه المرة يا «أورزولا»؟

ادعت الفتاة:

ـ العملاق كان مليئًا بالقنافذ الصغيرة.

فعارضتها قائلًا:

ـ ولكن هذا كلام فارغ يا «أورزولا»، العملاق لا يحمل معه قنافذ!

ـ كان عملاق القنافذ.

ظلت الفتاة متمسكة برأيها. رجعتُ إلى المنصة التي وقفت عندها المعلمة، وقلت لها:

ـ معك حق يا آنسة «كروم». يبدو أن خيال «جريتلي» كان واسعًا بالفعل.

قالت المعلمة محدقة بعينيها الحزينتين في اللاشيء:

ـ كانت طفلة شاعرية. والآن عليَّ أن أواصل تدريب الكورال للجنازة غدًا. الأطفال لا يتمرنون بما يكفي.

أعطت إشارة، فشرع الأطفال يغنون مجددًا: «خذ بيدي وقدني».»

١١

«لم يؤدِّ الاستجواب في «حانة الأيل» ـ حيث حللنا محل «هنتسي» ـ إلى أي شيء جديد، وعند هبوط المساء عدنا إلى «زيورخ» صفر الأيدي كما أتينا، صامتين.

دخنت وشربت نبيذًا أحمر من المنطقة كثيرًا جدًّا. أنت تعرف هذه الخمور المشكوك فيها. كان «متَّى» يجلس في خلفية السيارة مكتئبًا هو الآخر، ولم يشرع في التحدث إلا عندما وصلنا ميدان «رومرهوف»:

ـ لا أظن أن القاتل من أهالي «ميجندورف». لا بد أنه الجاني ذاته الذي ارتكب فعلته في مقاطعة «سان جالن» ومقاطعة «شفيتس»؛ لقد حدثت جريمة القتل على المنوال نفسه. أرجح أن الرجل يقدم على أفعاله انطلاقًا من «زيورخ».

ـ ممكن.

ـ سيكون شخصًا لديه سيارة، ربما وكيل تجاري. لقد رأى الفلاح «جربر» سيارة كانت واقفة في الغابة.

ـ لقد استجوبت «جربر» اليوم بنفسي. لقد اعترف بأنه نام نومًا عميقًا لا يسمح له بملاحظة أي شيء.

خيم علينا الصمت مجددًا. ثم بدأ الحديث بصوت مرتبك قليلًا:

ـ يؤسفني أن أتركك وسط هذه الحالة الغامضة، ولكن عليَّ أن ألتزم بالعقد الموقع مع الحكومة الأردنية.

ـ هل ستطير غدًا؟

ـ الساعة الثالثة بعد الظهر، عن طريق أثينا.

قلت له جادًّا:

ـ إنني أحسدك يا «متَّى». كنت أفضل أن أكون لواء شرطة عند العرب على أن أعمل هنا في «زيورخ».

أنزلته عند فندق «أوربان» حيث يسكن منذ سنوات طويلة، وذهبت أنا إلى مطعم «كرونن-هاله» حيث تناولت طعامي تحت لوحة «ميرو». مكاني المفضل. أجلس هناك دومًا وأطلب طعامي عند مرور عربة المأكولات.»

١٢

«عندما رجعت في حوالي العاشرة إلى مقر الشرطة مارًّا بمكتب «متَّى» السابق، قابلت «هنتسي» في الممر. كان قد غادر «ميجندورف» في الظهيرة، وهو ما أثار تعجبي، ولكنني لم أوجه له كلمة انتقاد لأن مبدئي في العمل هو عدم التدخل ما دمت كلفت شخصًا بالتحقيق في جريمة قتل. «هنتسي» أساسًا من مدينة «برن»، طموح، لكنه محبوب من فريق العمل. تزوج امرأة من عائلة «هوتينجر»، هجر الحزب الاشتراكي إلى الحزب الليبرالي، والباب مفتوح أمامه على اتساعه للترقي المهني. وهو الآن ـ هذا شيء أذكره فقط على الهامش ـ أصبح من المستقلين.

بادرني بالقول:

ـ ما زال مصرًّا على عدم الاعتراف.

سألت متعجبًا وبقيت واقفًا:

ـ من؟ من الذي لا يريد أن يعترف؟

ـ «فون جونتن».

اندهشت، وسألته:

ـ تحقيق متواصل؟

ـ طوال العصر، وإذا تطلب الأمر، فسنواصل طيلة هذه الليلة. الآن يتعامل معه «ترويلر». خرجت فقط لألتقط أنفاسي.

قلت له وقد استولى عليَّ الفضول:

ـ أريد أن أرى إذن ما يحدث.

ثم دخلت مكتب «متَّى» السابق.»

١٣

«كان البائع المتجول يجلس على كرسي المكتب الذي يخلو من المساند، بينما رجع «ترويلر» بظهره على كرسي مكتب «متّى» القديم الذي استخدمه كمتكأ لذراعه اليسرى. وضع قدمًا فوق قدم، بينما استراح رأسه على كفه اليسرى. كان يدخن سيجارة. تولى «فيلر» تسجيل الأقوال في المحضر. ظل «هنتسي» واقفًا معي على عتبة الباب، فلم يلاحظ البائع المتجول قدومنا، لأنه كان يعطينا ظهره.

غمغم البائع المتجول قائلًا:

ـ لم أفعلها، يا حضرة الضابط.

رد عليه «ترويلر»:

ـ وهذا ما لم أدَّعِه. إنني أقول فقط إنك قد تكون الفاعل. سوف نرى ما إذا كنتُ محقًّا في ذلك أم لا. فلنبدأ من البداية، لقد استلقيت مستريحًا على حافة الغابة.

ـ نعم، سيدي الضابط.

ـ ونمت؟

ـ صحيح، سيدي الضابط.

ـ لماذا؟ أنت كنت تريد الذهاب إلى «ميجندورف».

ـ كنت متعبًا، سيدي الضابط.

ـ ولماذا أمطرت ساعي البريد بالأسئلة عن الشرطي في «ميجندورف»؟

ـ حتى أعرف، سيدي الضابط.

ـ ماذا كنت تريد أن تعرف؟

ـ رخصتي لم أجددها. لذلك كنت أريد أن أعرف كيف هو الوضع في «ميجندورف» فيما يخص الشرطة.

ـ وكيف كان الوضع فيما يخص الشرطة؟

ـ عرفت أن هناك نائبًا للشرطة في «ميجندورف». لذلك خفت، سيدي الضابط.

قال الشرطي بنبرة جافة:

ـ أنا أيضًا نائب. هل تخاف مني أيضًا؟

ـ نعم، سيدي الضابط.

قال «ترويلر» مادحًا:

ـ ليست حكاية سيئة. ولكن ربما هناك رؤية أخرى لما حدث، تتميز عن حكايتك بأنها حقيقية.

ـ لقد قلت الحقيقة، سيدي الضابط.

ـ ألم تكن تريد بالأحرى أن تعرف ما إذا كان هناك شرطي موجود بالقرب منك أم لا؟

وجه البائع المتجول نظرة مستريبة إلى «ترويلر»:

ـ ماذا تعني بذلك، يا سيدي الضابط؟

أجاب «ترويلر» متمهلًا:

ـ أظن أنك أردت التأكد من ساعي البريد من أن الشرطي في «روتكيلرتيلشين» غير موجود، لأنك كنت تنتظر البنت هناك.

حملق البائع المتجول مرعوبًا في «ترويلر»، ثم صرخ يائسًا:

ـ أنا لم أكن أعرف البنت، سيدي الضابط. وحتى لو كنت أعرفها، فليس من الممكن أن أكون أنا الجاني. لم أكن وحدي في الوادي. عائلة الفلاح كانت في الحقل. لست قاتلًا، صدقني، من فضلك!

قال «ترويلر» مهدئًا من روعه:

ـ أصدقك. ولكن عليَّ أن أفحص ما تقوله، لا بد أن تتفهم ذلك. أنت قلت إنك ذهبت بعد أن استرحت إلى الغابة حتى تعود إلى «زيورخ»، أليس كذلك؟

قال البائع موضحًا:

ـ هبت عاصفة ممطرة، لذلك أردت أن أسلك طريقًا مختصرًا، سيدي الضابط.

ـ وفي تلك الأثناء عثرت على الجثة؟

ـ نعم.

ـ من دون أن تلمسها؟

ـ صحيح، سيدي الضابط.

صمت «ترويلر». ومع أنني لم أر وجه البائع المتجول فقد شعرت بخوفه. انتابتني الشفقة نحوه. غير أن اقتناعي بأنه الجاني كان يترسخ لحظة بعد أخرى، ربما لأنني كنت أريد أن نعثر أخيرًا على الجاني.

ثم سأل «ترويلر»:

ـ لقد أخذنا ملابسك يا «فون جونتن»، وأعطيناك غيرها. هل تعرف لماذا؟

ـ لا أعرف، سيدي الضابط.

ـ لأخذ عينة «بنتسيدين». هل تعرف ما هي عينة «البنتسيدين»؟

أجاب البائع حائرًا:

ـ لا، سيدي الضابط.

قال «ترويلر» شارحًا بهدوء شبحي:

ـ عينة كيميائية للتأكد من وجود آثار دماء. لقد وجدنا دماء على معطفك يا «فون جونتن». إنه دم البنت.

قال «فون جونتن» متأوهًا:

ـ لأن... لأنني تعثرت بالجثة، سيدي الضابط. كان ذلك فظيعًا.

ثم غطى وجهه بيديه.

ـ وبالطبع لم تذكر لنا هذا بسبب الخوف؟

ـ نعم، سيدي الضابط.

ـ وعلينا أن نصدقك مرة ثانية؟

تضرع البائع يائسًا:

ـ لست القاتل، سيدي الضابط. صدقني، من فضلك. أحضر السيد الدكتور «متَّى»، هو يعرف أنني أقول الحقيقة. أرجوك.

أجابه «ترويلر»:

ـ لم يعد للدكتور «متَّى» علاقة بالأمر. إنه سيسافر غدًا إلى الأردن.

همس «فون جونتن»:

ـ إلى الأردن. لم أكن أعرف.

راح يحملق في الأرضية صامتًا. خيم صمت الأموات على الغرفة. لم يكن هناك من صوت سوى تكة عقارب الساعة، وفي بعض الأحيان هدير سيارة من الشارع.

الآن تدخل «هنتسي». في البداية أغلق النافذة، ثم جلس خلف مكتب «متَّى»، بلطف وبشاشة، غير أنه عدَّل من وضع مصباح المكتب حتى يسقط ضوؤه على وجه البائع المتجول. بأدب بالغ قال الملازم:

ـ لا تنفعل هكذا، يا سيد «فون جونتن». لا نريد بأي حال من الأحوال أن نسبب لك العذاب. إننا نريد أن نعرف الحقيقة فحسب. ولذلك لا بد من أن نتكلم معك، فأنت أهم شاهد. يجب عليك أن تساعدنا.

رد «فون جونتن»:

ـ نعم، يا سيدي الدكتور.

وبدا أنه تشجع قليلًا. راح «هنتسي» يحشو غليونه، ثم سأل البائع:

ـ ماذا تدخن، سيد «فون جونتن»؟

ـ سجائر، سيدي الدكتور.

ـ أعطه واحدة يا «ترويلر».

هز البائع المتجول رأسه، وقد تسمر بصره على الأرضية. كان الضوء يبهر نظره. فسأله «هنتسي» بلطف:

ـ هل يضايقك المصباح؟

ـ الضوء مسلط على عينيَّ.

عدَّل «هنتسي» من وضع مصباح المكتب، ثم سأل البائع:

ـ هكذا أفضل؟

أجاب «فون جونتن» بصوت خافت نمَّ عن الشكر:

ـ أفضل.

ـ قل لي يا سيد «فون جونتن»، ما الأشياء التي تبيعها؟ مناديل للتنظيف؟

قال البائع المتجول مترددًا:

ـ نعم، مناديل للتنظيف من بين ما أبيعه.

لم يفهم الهدف من السؤال.

ـ وماذا أيضًا؟

ـ أربطة أحذية، سيدي الدكتور. فرش أسنان. معجون أسنان. صابون. كريم حلاقة.

ـ شفرات حلاقة؟

ـ أيضًا، سيدي الدكتور.

ـ أي ماركة؟

ـ «جيليت».

ـ هل هذا هو كل شيء، سيد «فون جونتن»؟

ـ أظن ذلك، سيدي الدكتور.

قال «هنتسي» وهو يعبث بغليونه:

ـ طيب. لكنني أظن أنك نسيت بعض الأشياء.

ثم أضاف:

ـ لا يريد أن يشتعل. اذكر لنا بقية أشيائك، سيد «فون جونتن». لقد فحصنا سلتك بدقة.

لم ينطق البائع المتجول.

ـ هه؟

قال البائع بصوت خافت حزين:

ـ سكاكين مطبخ، سيدي الدكتور.

لمعت حبات العرق على قفاه. راح «هنتسي» ينفخ سحابة دخان إثر الأخرى، بهدوء وتؤدة، شاب لطيف يريد الخير للناس.

ـ وماذا أيضًا، «فون جونتن»، غير سكاكين المطبخ؟

ـ مديات حلاقة.

ـ ولماذا أنت متردد في الإقرار بذلك؟

لم ينطق البائع المتجول بكلمة. مد «هنتسي» يده كأنه غارق في أفكاره ناحية المصباح مرة أخرى. غير أنه أبعد يده ثانيةً عندما ارتجف «فون جونتن». حملق الشرطي في وجه البائع المتجول من دون أن يحول بصره. كان يدخن السيجارة تلو الأخرى. هذا غير دخان غليون «هنتسي». كان الهواء في الغرفة خانقًا. كنت أود لو فتحت النافذة، لكن النوافذ المغلقة كانت جزءًا من الطريقة.

قال «هنتسي» بصوت منخفض كأنه اكتشف ذلك بالصدفة:

ـ الفتاة قُتلت بمدية حلاقة.

ساد الصمت. كان البائع يجلس على كرسيه منكمشًا، متخشبًا. اتكأ «هنتسي» إلى الوراء ثم واصل كلامه قائلًا:

ـ عزيزي «فون جونتن». فلنتحدث مع بعضنا البعض كرجال. لا نريد أن نتظاهر بشيء. إنني أعرف أنك القاتل. ولكنني أعرف أيضًا أن الجريمة أصابتك بالذعر، مثلما أصابتني، مثلما أصابتنا جميعًا. لقد فعلتها بدون وعي، فجأة أصبحت كالحيوان، فهجمت على البنت وقتلتها، من دون أن تريد ذلك، ودون أن يكون لك ذنب في ذلك. كان هناك شيء أقوى منك. وعندما عدت إلى وعيك، سيد «فون جونتن»، ارتعبت رعبًا هائلًا. عدوت إلى «ميجندورف»، لأنك كنت تريد أن تسلم نفسك، إلا أنك فقدت شجاعتك. شجاعة الاعتراف. ينبغي عليك أن تحوز هذه الشجاعة من جديد، يا سيد «فون جونتن». ونحن نريد أن نساعدك في ذلك.

صمت «هنتسي». كان البائع المتجول يتأرجح قليلًا على كرسيه. بدا كأنه على وشك الانهيار. واصل «هنتسي» ادعاءاته قائلًا:

ـ أنا صديقك يا «فون جونتن». استغل هذه الفرصة.

فتأوه البائع المتجول قائلًا:

ـ أنا تعبان.

رد «هنتسي»:

ـ التعب يسيطر علينا جميعًا. يا «ترويلر»، أحضر لنا قهوة، وفيما بعد بيرة. لضيفنا «فون جونتن» أيضًا. إننا ـ في شرطة المقاطعة ـ نتسم بالعدل والإنصاف.

همس البائع المتجول:

ـ أنا بريء، يا حضرة المفتش، أنا بريء.

دق جرس التلفون. تناول «هنتسي» السماعة وذكر اسمه، ثم أصغى بانتباه لما يقوله الطرف الآخر، ووضع السماعة مبتسمًا. ثم سأل متمهلًا:

ـ قل لي، سيد «فون جونتن». ماذا أكلت ظهر الأمس؟

ـ صحن «برن» من النقانق واللحوم المشكلة.

ـ جميل، وماذا أيضًا؟

ـ في ختام الوجبة جبنة.

ـ جبنة «إمنتالر» أم «جرايرتزر»؟

أجاب «فون جونتن» ماسحًا العرق فوق عينيه:

ـ «تيلزيتلر» و«جورجونزولا».

ـ يعرف البائعون المتجولون كيف يتناولون طعامًا جيدًا. غير ذلك، لم تأكل شيئًا؟

ـ لا شيء.

حذره «هنتسي» قائلًا:

ـ لو كنت في مكانك، لفكرت جيدًا قبل أن أجيب.

قال «فون جونتن» متذكرًا:

ـ شوكولاتة.

قال له «هنتسي» مشجعًا:

ـ أترى، ها أنت تذكرت شيئًا. وأين أكلتها؟

قال البائع المتجول متعبًا، وهو يتطلع إلى «هنتسي» بنظرة شك:

ـ على حافة الغابة.

أطفأ الملازم مصباح المكتب. لم يعد ينير الغرفة المعبأة

بالدخان سوى الضوء الشاحب الذي يرسله مصباح السقف. ثم قال «هنتسي» بنبرة آسفة:

ـ لقد تلقيت الآن تقرير معهد الطب الجنائي. تم تشريح البنت. وفي معدتها وجدوا آثار شوكولاتة.

والآن، كنت أنا أيضًا مقتنعًا بأن البائع المتجول هو الجاني. لم يعد اعترافه سوى مسألة وقت. أومأت برأسي لـ«هنتسي» وغادرت الغرفة.»

١٤

«لم أكن مخطئًا. في صبيحة اليوم التالي، يوم السبت، اتصل بي «هنتسي» في السابعة صباحًا وأخبرني أن البائع المتجول اعترف. في الثامنة كنت في المكتب. لم يزل «هنتسي» في مكتب «متّى» السابق. كان يرسل البصر من النافذة المفتوحة، ثم التفت إليّ وحياني. على الأرض زجاجات بيرة، المنافض تفيض بأعقاب السجائر. لم يكن غيره في الغرفة. سألته:

ـ اعتراف تفصيلي.

ـ سيقدمه قريبًا. أهم شيء أنه اعترف بالقتل لإشباع الشهوة.

ـ آمل أن تكونوا تصرفتم على نحو صحيح.

زمجرت بهذه الجملة لأن التحقيق استغرق أكثر من عشرين ساعة، وهو شيء مخالف بالطبع للتعليمات،

ولكننا، نحن رجال الشرطة، لا نستطيع دومًا اتباع اللوائح.

قال «هنتسي» موضحًا:

ـ غير ذلك لم تُستخدم طرق غير مشروعة، سيادة اللواء.

ذهبت إلى «البوتيك» وأمرت بإحضار البائع المتجول. لم يكد يستطيع الوقوف، فسنده الشرطي الذي أحضره؛ غير أنه لم يجلس عندما طلبت منه ذلك. قلت له بصوت خرج رغمًا عني لطيف النبرة:

ـ يا سيد «فون جونتن»، كما سمعت فقد اعترفتَ بقتل البنت الصغيرة «جريتلي موزر».

أجاب البائع المتجول بصوت خفيض للغاية لم أفهمه إلا بالكاد:

ـ قتلتُ البنت.

كان يحملق في الأرض.

ـ اتركوني الآن في حالي.

ـ اذهب الآن للنوم، يا سيد «فون جونتن». سنواصل حديثنا فيما بعد.

ثم أخرجوه. عند الباب تقابل مع «متَّى». بقي البائع واقفًا.

كان يتنفس بصعوبة. انفتح فمه كأنه يريد أن يقول شيئًا، غير أنه لم ينطق بكلمة. ظل يتطلع إلى «متَّى» الذي أفسح له الطريق مرتبكًا.

أمر الشرطي «فون جونتن»:

ـ امشِ.

واقتاده بعيدًا.

دخل «متَّى» «البوتيك»، وأغلق الباب خلفه. أشعلت لنفسي سيجارًا.

ـ ما رأيك يا «متَّى»؟

ـ حققوا مع المسكين ما يزيد على عشرين ساعة؟

ـ هذه الطريقة تعلمها «هنتسي» منك. أنت أيضًا كنت في التحقيقات عنيدًا. في الحقيقة لقد تعامل مع الحالة الأولى له بمهارة تامة، ألا ترى ذلك؟

لم يجب «متَّى».

أمرت بإحضار فنجانين من القهوة بالحليب مع «كرواسان».

كنا نعاني معًا من تأنيب الضمير. لم تحسِّن القهوة الساخنة من مزاجنا.

قال «متَّى» أخيرًا:

ـ لديَّ إحساس أن «فون جونتن» سيتراجع عن اعترافه.

أجبته بنبرة جهمة:

ـ ممكن. عندئذ سيتحتم علينا أن نحقق معه من جديد.

سألني:

ـ هل تعتبره مذنبًا؟

سألته بدوري:

ـ أنت لا؟

تردد «متَّى». ثم أجاب بلا اقتناع:

ـ بلى، أنا أيضًا.

من النافذة غمرنا ضياء الصباح، فضيًّا باردًا. من كورنيش نهر «الزيل» تناهت إلينا ضوضاء الشارع، ومن الثكنة العسكرية وقع خطوات الجنود.

عندئذ ظهر «هنتسي». دخل إلينا من دون أن يدق الباب. ثم قال مُبلغًا:

ـ لقد شنق «فون جونتن» نفسه.»

١٥

«كانت الزنزانة تقع في آخر الممر الكبير. عدونا إليها. انكب رجلان على البائع المتجول. كان ممددًا على الأرض. شقوا قميصه، فبرز صدره المشعر الساكن. في النافذة لم تزل حمالات البنطلون تتأرجح.

قال أحد الشرطيين:

ـ لا فائدة. الرجل مات.

أشعلت سيجاري المطفأ مرة ثانية، ووضع «هنتسي» سيجارة في فمه.

قلت:

ـ بهذا يكون ملف «جريتلي» قد أُغلق.

ثم عدت إلى مكتبي سائرًا في الممر الطويل وأنا أشعر بالتعب.

ـ وأنت يا «متَّى»، أتمنى لك رحلة طيبة إلى الأردن.»

١٦

«ولكن عندما حضر «فيلر» بسيارة العمل حوالي الثانية ظهرًا إلى فندق «أوربان»، لآخر مرة، حتى يوصل «متَّى» إلى المطار، وبعد أن وُضعت الحقائب في السيارة قال المفتش إنه ما زال لديه وقت، وهو يريد أخذ الطريق المار بـ«ميجندورف». أطاع «فيلر»، وقاد السيارة عبر الغابات. عندما وصلا إلى ساحة القرية كانت الجنازة تقترب، حشد كبير من الصامتين. توافد إلى القرية عدد كبير من الناس من سكان القرى المحيطة ومن المدينة أيضًا ليشاركوا في الجنازة. كانت الصحف قد كتبت عن موت «فون جونتن». شعر الناس عمومًا بالارتياح لانتصار العدالة. غادر «متَّى» السيارة ووقف مع «فيلر» بين الأطفال في مواجهة الكنيسة. كان التابوت موضوعًا فوق عربة تجرها الخيل ومحاطًا بالورد الأبيض. سار أطفال القرية خلف التابوت، اثنين اثنين دائمًا، ومع كل اثنين إكليل من الزهور، في المقدمة

المعلمة والمعلم والقس. الفتيات بملابس بيضاء. ثم والدا «جريتلي موزر»، كائنان متشحان بالسواد. بقيت المرأة واقفة تتطلع إلى المفتش. خلا وجهها من التعبير، أما عيناها فكانتا خاويتين.

قالت المرأة بصوت خافت لكنه واضح، فسمعها المفتش:

ـ لقد أوفيت بوعدك. أشكرك.

ثم واصلت السير، مستقيمة القامة، معتزة بنفسها إلى جوار رجل منكسر بدا فجأة طاعنًا في السن.

ظل المفتش واقفًا حتى عبر الحشد كله، رئيس المجلس القروي، نواب الحكومة، الفلاحون، العمال، ربات البيوت، البنات، كل هؤلاء في أفضل ملابسهم وأكثرها احتفالية. خيم الصمت على كل شيء في شمس ذلك العصر، أيضًا المتفرجون لم يحركوا ساكنًا. لم تُسمع في الأفق سوى أجراس الكنيسة ودوران عجلات العربة التي تجرها الخيل، ووقع خطوات الحشد الضخم فوق حجارة شارع القرية.

قال «متَّى»:

ـ إلى مطار «زيورخ».

ثم ركب الاثنان السيارة.»

١٧

«بعد أن ودع «فيلر» واجتاز نقطة التفتيش على الجوازات، اشترى في صالة الانتظار عددًا من «النويه تسوريشر تسايتونج». كانت صورة «فون جونتن» مطبوعة، وتحتها وُصف بأنه قاتل «جريتلي موزر»، كما كانت صورة المفتش منشورة إلى جانب إشارة إلى وظيفته الجديدة المشرفة. رجل وصل إلى ذروة مجده المهني. عندما توجه إلى الطائرة، حاملًا معطف المطر فوق ذراعه، لاحظ أن شرفة المطار مكتظة بالأطفال. رحلة مدرسية إلى المطار. فتيات وفتيان بملابس صيفية زاهية الألوان، كانوا يلوحون برايات ومناديل صغيرة. كانوا يقابلون صعود الماكينات الفضية العملاقة أو هبوطها بتهليل ودهشة. تعجب المفتش، ثم واصل سيره إلى طائرة «سويس إير» المنتظرة. عندما بلغها، كان الركاب الآخرون قد صعدوا. مدت المضيفة

يدها لتأخذ منه البطاقة وتقوده إلى مكانه، غير أن المفتش التفت وراءه مجددًا. تطلع إلى مجموعة الأطفال التي كانت تلوح بسعادة وحسد إلى الطائرة المستعدة للإقلاع.

قال «متّى»:

ـ يا آنسة. لن أسافر.

ثم عاد إلى مبنى المطار، وخطا ناحية باب الخروج، مارًّا من تحت الشرفة المكتظة بعدد هائل من الأطفال.»

١٨

«لم أستقبل «متَّى» إلا صبيحة يوم الأحد. لم أكن أجلس في «البوتيك»، بل في المكتب الرسمي، مرسلًا نظرة رسمية أيضًا على نهر «الزيل». على الجدران «جوبلر» و«هورجنتالر» و«هونتسيكر»، رسامون من «زيورخ» لهم وزنهم. كنت غاضبًا بعد الخلافات التي انفجرت والاتصال الذي جاءنا من القسم السياسي من رجل لم يكن يريد التحدث إلا بالفرنسية. السفارة الأردنية تقدمت باعتراضها طالبةً من المجلس الحكومي تفسيرًا لما حدث، وهو ما لم أستطع تقديمه، لأنني لم أفهم سلوك مرؤوسي السابق.

على ما يبدو أحزنته نبرتي الرسمية قليلًا:

ـ تفضل بالجلوس يا سيد «متَّى».

جلسنا. لم أدخن ولم تكن بي رغبة في التدخين. أقلقه سلوكي. قلت مكملًا كلامي:

ـ الحكومة السويسرية وقعت اتفاقية مع الدولة الأردنية لإعارة خبير من جهاز الشرطة، ثم وقعت أنت ـ يا دكتور «متَّى» ـ عقدًا مع الأردن. بناءً على عدم سفرك تم الإخلال بهذه العقود. أعتقد أنني لست بحاجة إلى مزيد من الإيضاح، فأنا أتكلم كرجل قانون مع رجل قانون.

رد «متَّى»:

ـ لا ضرورة لذلك.

فقلت مقترحًا:

ـ لذلك أرجوك أن تسافر بأسرع ما يمكن إلى الأردن.

رد «متَّى»:

ـ لن أسافر.

ـ لماذا؟

ـ لم نعثر بعد على قاتل البنت الصغيرة «جريتلي موزر».

ـ أترى البائع المتجول بريئًا؟

ـ نعم.

ـ ولكنه اعترف.

ـ لا بد أنه فقد أعصابه. التحقيق الطويل، اليأس، الشعور بالوحدة.

ثم أضاف بصوت خافت:

ـ لست بريئًا من دمه. لقد قصدني البائع، وأنا لم أساعده. كنت أريد السفر إلى الأردن.

كان الموقف غريبًا. حتى اليوم السابق كان كلٌّ منا يعامل الآخر بلا تكلف، والآن يجلس كلانا متخشبًا ورسميًّا في مواجهة الآخر ببدلة يوم الأحد.

قال «متَّى»:

ـ أرجوك أن تكلفني بهذه الحالة مرة أخرى، سيادة اللواء.

ـ لا يمكنني الاستجابة إلى طلبك، مطلقًا. لم تعد موظفًا لدينا يا دكتور «متَّى».

حملق المفتش فيَّ مندهشًا:

ـ هل فُصلت؟

شرحت له الأمر بهدوء:

ـ لقد انتهت فترة خدمتك لدى شرطة المقاطعة لأنك كنت تريد قبول وظيفة في الأردن. أنت لم تلتزم بالعقد، هذا

شأنك أنت. ولكننا إذا أردنا توظيفك من جديد، فإن هذا سيعني أننا موافقون على الخطوة التي اتخذتها. وستفهمني عندما أقول لك إن هذا مستحيل.

ـ آه، فهمت.

ثم قلت بحسم:

ـ لم يعد من الممكن تغيير الأمر.

خيم علينا الصمت. ثم قال بصوت خفيض:

ـ عندما مرت السيارة في طرقات «ميجندورف» وأنا في طريقي إلى المطار رأيت أطفالًا.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ مشى وراء النعش أطفال كثيرون.

ـ هذا أمر طبيعي تمامًا.

ـ في ساحة المطار أيضًا كان هناك أطفال، فصول دراسية بكاملها.

ـ وماذا في ذلك؟

رحت أنظر إليه متعجبًا.

ـ إذا افترضنا أنني محق، إذا افترضنا أن قاتل «جريتلي

موزر» ما زال حيًا، ألن يكون أطفال آخرون معرضين للخطر؟

رددت بهدوء:

ـ بالتأكيد.

أكمل «متَّى» كلامه بإلحاح:

ـ إذا كان احتمال الخطر واردًا، فواجب الشرطة أن تحمي الأطفال، وأن تمنع وقوع جريمة جديدة.

سألته ببطء:

ـ ألهذا السبب إذن لم تسافر؟ لتحمي الأطفال؟

فأجاب «متَّى»:

ـ نعم.

لبرهة لم أنطق بكلمة. اتضح لي الأمر الآن، وبدأت أفهم «متَّى». ثم قلت له إن علينا أن نقبل وجود احتمال بتعرض الأطفال للخطر. إذا كان محقًّا في ظنه، فليس أمامنا غير أن نأمل أن يفضح القاتل نفسه يومًا ما، أو ـ في أسوأ الأحوال ـ أن يترك لنا أثناء ارتكابه جريمته التالية آثارًا تقودنا إليه. ما أقوله يبدو قاسيًا، لكنه ليس كذلك. الأمر فظيع، هذا هو كل شيء. سلطة الشرطة لها حدود، ولا بد

أن يكون لها حدود. صحيح أن كل شيء ممكن، حتى أبعد الأشياء احتمالًا، ولكن علينا أن ننطلق من المحتمل. لا يمكننا أن نقول إن «فون جونتن» هو بالتأكيد مذنب، هذا شيء ليس في مقدورنا أن نقوله أبدًا؛ ولكن يمكننا أن نقول إنه من المحتمل أن يكون مذنبًا. إذا لم نكن نريد اختراع شخص مجهول، فإن البائع هو الوحيد الذي تحوم حوله الشبهات. له سوابق في جرائم الآداب، يحمل معه مدية حلاقة وشوكولاتة، على ملابسه دماء، كما أنه بسبب مهنته كان يتردد على «شفيتس» و«سان جالن»، أي في المدينتين اللتين حدثت فيهما جريمتا قتل، كما أنه اعترف ثم انتحر. بعد كل هذا لن يشك رجل شرطة في أنه الجاني. المنطق السليم يقول لنا إن «فون جونتن» هو القاتل. إن المنطق السليم يخطئ أحيانًا، إننا مجرد بشر، فهذه مخاطرة لا بد من قبولها. كما أن جريمة قتل «جريتلي موزر» ليست للأسف الجريمة الوحيدة التي تشغلنا. قبل قليل انطلقت دورية شرطة إلى «شليرين»، ثم لدينا أربع عمليات سطو كبيرة حدثت هذه الليلة. أن نعيد التحقيق في الحادث، فهذا ترف لا نقوى عليه نظرًا إلى ظروف عملنا. لا نستطيع أن نقوم إلا بالممكن، وهذا ما فعلناه. الأطفال دائمًا في خطر. في العام الواحد يتم تسجيل أكثر من مئتي جريمة آداب. في هذه المقاطعة

وحدها. يمكننا توعية الآباء، وتحذير الأطفال، وكل هذا فعلناه بالفعل، ولكننا لا نستطيع أن نزيد شبكة الشرطة كثافة حتى لا تحدث جرائم. الجرائم تحدث دائمًا، ليس لأن عدد رجال الشرطة قليل، بل بسبب وجود الشرطة أساسًا. لو لم يكن هناك احتياج لنا، لما وقعت جرائم. يجب علينا أن نتذكر هذا دومًا. علينا أن نؤدي واجبنا، في هذا عندك حق يا «متَّى»، ولكن واجبنا الأول هو عدم تجاوز حدودنا، وإلا سننشئ دولة بوليسية.

توقفت عن الكلام.

في الخارج بدأت أجراس الكنائس تدق.

ثم قلت خاتمًا كلامي في أدب:

ـ إنني أتفهم أن موقفك الشخصي أصبح صعبًا. أنت كمن جلس بين كرسيين.

قال «متَّى»:

ـ أشكرك، سيدي الدكتور. سأهتم بدايةً بحالة «جريتلي موزر». بشكل شخصي.

نصحته قائلًا:

ـ من الأفضل لك أن تتخلى عن ذلك.

ـ لن أفعل.

لم أُبدِ سخطي. ثم سألته وأنا أنهض:

ـ هل تسمح لي فقط بأن أرجوك ألا تزعجنا بهذا الأمر بعد اليوم؟

قال «متّى»:

ـ إذا كان هذا طلبك.

ثم افترقنا من دون أن نتصافح.»

١٩

«كان صعبًا على «متَّى» أن يغادر مبنى الشرطة الفارغ بعد أن مر بمكتبه السابق. اللافتة على الباب كانت قد تغيرت، و«فيلر» ـ الذي قابله لأنه كان هو أيضًا موجودًا يوم الأحد ـ ارتبك لمرآه. لم يوجه إليه التحية تقريبًا، غمغم شيئًا فحسب. كان «متَّى» يشعر بنفسه كأنه شبح يحوم في المكان، وكان أكثر ما يضايقه أن لم تعد بحوزته سيارة العمل. كان عازمًا على العودة بأسرع ما يمكن إلى «ميجندورف»، غير أنه لم يكن يستطيع تنفيذ ما نوى عليه بهذه السهولة. صحيح أن المسافة إلى هناك لم تكن بعيدة، لكن الرحلة لم تكن سهلة. كان عليه أن يستقل الترام رقم ٨ ثم الباص. في الترام رأى «ترويلر» الذي كان في طريقه مع زوجته إلى والديها. حملق مندهشًا في المفتش، لكنه لم يوجه أسئلة، وعمومًا فقد كان «متَّى» يقابل معارف

في كل خطوة، مثلًا أستاذًا في المعهد التقني العالي في «زيورخ»، ثم أحد الرسامين. كان يجيب إجابات ضبابية حول سبب عدم سفره. كان الموقف في كل مرة محرجًا، خاصةً بعد الاحتفال بـ«ترقيته» وسفره. شعر كأنه شبح، كأنه بُعث من الموت.

عندما وصل «ميجندورف» كانت الأجراس بدأت تخفت تدريجيًّا. وقف الفلاحون في ساحة القرية مرتدين ملابس يوم الأحد، أو اتجهوا في مجموعات إلى «حانة الأيل». أصبح الطقس أكثر برودة عنه في الأيام السابقة، ومن الغرب كانت السحب الكثيفة تعبر السماء. في قرية «موزباخ» كان الأولاد قد عادوا يلعبون كرة القدم. لم يكن هناك ما يشير إلى أن جريمة وقعت قبل أيام قليلة بالقرب من القرية. الفرحة تعم المكان، ومن مكان ما تصاعد صوت غناء كلاسيكي: «عند النافورة، أمام البوابة». أمام منزل ريفي ضخم، بأسوار مبنية بالطوب والخشب، وسقف سميك جدًّا كان الأطفال يلعبون «استغماية»؛ راح صبي يعد بصوت عالٍ حتى عشرة، أما الآخرون فكانوا قد ابتعدوا عن المكان. راح «متّى» يتطلع إليهم.

قال صوت خافت بجانبه:

- يا رجل.

التفت حوله. بين كومة من الحطب المربوطة بعناية وسور إحدى الحدائق كانت بنت صغيرة تقف مرتدية فستانًا أزرق. عيون عسلية، شعر بني. «أورزولا فلمان».

سألها المفتش:

ـ ماذا تريدين؟

همست البنت:

ـ قف أمامي، حتى لا يعثروا عليَّ.

وقف المفتش أمام الفتاة. ثم ناداها قائلًا:

ـ «أورزولا».

فهمست البنت:

ـ لا تتحدث بصوت عالٍ هكذا، وإلا سيسمعون أنك تتحدث مع شخص.

تحدث المفتش بصوت هامس هو الآخر:

ـ «أورزولا»، أنا لا أصدق حكاية العملاق.

ـ لا تصدق ماذا؟

ـ أن «جريتلي موزر» كانت تتقابل مع عملاق، طويل كالجبل.

ـ ولكنه موجود فعلًا.

ـ هل رأيتِ إذن عملاقًا؟

ـ لا، ولكن «جريتلي» رأته. ولكن اسكت الآن.

تسلل صبي أحمر الشعر وعلى وجهه نمش من المنزل واقترب منهما. كان هو الصبي المكلف بالبحث. ظل واقفًا أمام المفتش، ثم تسلل إلى الجانب الآخر من المنزل الريفي. ضحكت البنت ضحكة طفولية خافتة.

ـ لم يلاحظ وجودي.

همس المفتش:

ـ كانت «جريتلي» تحكي لك حكاية خرافية.

ردت البنت:

ـ لا، كان العملاق ينتظر «جريتلي» كل أسبوع، ويعطيها قنافذ.

ـ أين؟

أجابت «أورزولا»:

ـ في «روتكيلرتيلشن». وهي رسمته. إذن، لا بد أنه موجود. والقنافذ الصغيرة أيضًا.

تعجب «متَّى»:

ـ هي رسمت العملاق؟

قالت الفتاة:

ـ الرسمة معلقة في الفصل. تحرك جانبًا.

ما كادت تنطق بهذه الجملة حتى كانت قد حشرت نفسها بين «متَّى» وكومة الحطب، ثم قفزت في اتجاه البيت الريفي، ووصلت قبل الصبي إلى الباب الذي كان عليها أن تدق عليه، فصرخت مهللة، في حين كان الصبي يسرع آتيًا من خلف المنزل.»

٢٠

«كانت الأخبار التي جاءتني صبيحة يوم الاثنين غريبة ومقلقة. في البداية اشتكى رئيس المجلس القروي تلفونيًّا لأن «متَّى» اقتحم مبنى المدرسة وأخذ معه رسمة للفتاة القتيلة «جريتلي موزر»؛ إنه يرفض أن تقوم شرطة المقاطعة بأية تدخلات أخرى في قريته، فهم بحاجة الآن إلى الهدوء بعد كل الذعر الذي عاشوه؛ وفي الختام أخبرني بطريقة لا يمكن وصفها بالمهذبة أنه سيطرد «متَّى» بكلبه من القرية لو رآه أحد ثانيةً فيها. ثم اشتكى «هنتسي» من «متَّى» بعد أن تشاجر معه، ومما يثير الحرج أن ذلك حدث في مطعم «كرونن-هاله». كان رئيسه السابق مخمورًا على نحو واضح بعد أن شرب لترًا من نبيذ «ريزيرف دو باترون» المعتق كأنه يشرب ماء، ثم طلب كونياك، وبعد ذلك أطلق على «هنتسي» لقب «قاتل باسم العدالة». زوجته، السيدة

«هوتينجر»، كانت مشمئزة للغاية. ولكن هذا لم يكن كل شيء. بعد أن قدم لي «فيلر» تقريره الصباحي قال لي إن شخصًا، وتحديدًا من شرطة المدينة، أخبره أن «متَّى» شوهد في بارات عديدة، وأنه الآن يسكن في فندق «ركس». كما تناهى إلى علمنا أن «متَّى» بدأ يدخن. تغير الرجل وتبدل تمامًا، كأنه اكتسب شخصية أخرى بين عشية وضحاها. فكرت في انهيار عصبي وشيك، فاتصلت بطبيب نفسي كان كثيرًا ما يدلي لنا برأيه كخبير.

لدهشتي أجاب الطبيب بأن «متَّى» أخذ موعدًا لديه بعد الظهر، فأخبرته بما حدث.

في أعقاب ذلك كتبت رسالة إلى السفارة الأردنية. أبلغتهم بمرض «متَّى» ورجوتهم منحه إجازة، وبأن المفتش سوف يكون في غضون شهرين في عمَّان.»

٢١

«تقع العيادة الخاصة بعيدًا عن المدينة بالقرب من قرية «روتن». استقل «متَّى» القطار، ثم تحتم عليه السير مسافة طويلة. كان نافد الصبر، ولذلك لم يستطع انتظار الباص الذي سرعان ما تجاوزه أثناء سيره، فتطلع إليه غاضبًا. مر في شوارع تجمع قروي صغير. على حافة الطريق أطفال يلعبون، الفلاحون يعملون في حقولهم. كانت السماء فضية، ملبدة بالغيوم. أصبح الطقس باردًا مرة أخرى، وانزلقت درجة الحرارة في طريقها إلى الصفر، من دون أن تصل إليه لحسن الحظ. مشى «متَّى» بحذاء التل، ثم انحرف ناحية «روتن» على الطريق الذي يخترق السهل والمؤدي إلى المصحة. في البداية لفت نظره مبنى أصفر بمدخنة عالية. يبدو أنه يقترب من مصنع بائس. ولكن الصورة سرعان ما أضحت أكثر لطفًا. صحيح أن المبنى

الرئيسي مغطى بأشجار الزان والحور، غير أنه لاحظ أيضًا أشجار أرز وشجرة سرو عملاقة. دخل الحديقة، فوجد الطريق يتفرع. اتبع «متَّى» لافتة مكتوبًا عليها «الإدارة». من خلال الأشجار والشجيرات لمعت صفحة بحيرة صغيرة، ولكن ربما لا يعدو الأمر أن يكون ضبابًا. صمت القبور. لم يسمع «متَّى» سوى وقع خطواته فوق الحصى. بعد ذلك سمع صوت مكنسة. كان صبي ينظف الطريق المفروش بالحصى، يتحرك ببطء ورتابة. بقي «متَّى» واقفًا وقد استولت عليه الحيرة. لم يعرف إلى أين يتوجه، إذ لم يرَ لافتة أخرى، فسأل الشاب:

ـ هل يمكن أن تقول لي أين الإدارة؟

لم يرد الصبي بكلمة. استمر يعمل في التربة، برتابة وهدوء كأنه آلة، وكأن أحدًا لم يتحدث معه، وكأن المكان ليس به أحد. كان وجهه خاليًا من أي تعبير، ولأن عمله كان يتناقض مع قواه الجسدية الهائلة، خامر المفتش شعور بالخطر. وكأن الصبي قد يضربه فجأة بمكنسته. أحس بالقلق. واصل سيره مترددًا، ودخل الفناء، وعلى الفور وجد نفسه في فناء ثانٍ أكبر. على كلا الجانبين ممر بأعمدة، كما في الأديرة. ولكن الفناء كان ينتهي بمبنى يشبه البيوت الريفية. ولكنه لم يجد أحدًا في المبنى أيضًا، من مكان

ما تغلغل صوت شاكٍ، عاليًا ومتوسلًا، يكرر كلمة، على الدوام، بلا توقف. من جديد بقي «متّى» واقفًا وقد استولت عليه الحيرة. استولى عليه حزن لا يمكن تفسيره. فارقته شجاعته كما لم يحدث له يومًا. ضغط على مقبض بوابة قديمة مليئة بالشقوق والنقوش، غير أن الباب لم يستجب. ليس سوى الصوت، المتكرر دومًا. سار كالنائم في الممر المحاط بالأعمدة. في الأحواض الحجرية الكبيرة رأى زهور تيوليب حمراء، وفي أحواض أخرى زهورًا صفراء. الآن تناهى إلى سمعه وقع خطوات، كان رجل ضخم يسير بهيبة عبر الفناء. مستغربًا ومتعجبًا بعض الشيء. كانت ممرضة تقوده.

قال المفتش:

ـ حياكِ الله. أريد مقابلة البروفيسور «لوخر».

سألته الممرضة:

ـ هل عندك موعد؟

ـ إنه ينتظر مجيئي.

قالت الممرضة مشيرةً إلى باب في الجناح:

ـ تفضل إلى الصالون.

ثم أضافت:

ـ سيأتي أحد لاصطحابك.

وواصلت سيرها، ممسكةً بذراع الشيخ الذي كان شبه غائب عن الوعي، ثم فتحت بابًا واختفت مع الشيخ. كان لا يزال من الممكن سماع الصوت الآتي من مكان ما. دخل «متَّى» الصالون، وهو عبارة عن غرفة كبيرة بها أثاث عتيق، فوتيه وأريكة ضخمة وفوقها بورتريه رجل في إطار ثقيل مذهب. لا بد أنه مؤسس هذه المصحة الخيرية. بالإضافة إلى البورتريه كانت على الجدران صور لمناطق استوائية، ربما من البرازيل. اعتقد «متَّى» أنه يرى المناطق المحيطة بـ«ريو دي جانيرو». سار إلى الباب الجانبي. كان يؤدي إلى شرفة، على الدرابزين الحجري شجيرات صبار كبيرة. لم يعد بإمكانه رؤية الحديقة كلها بعد أن تكاثف الضباب. خمن «متَّى» وجود درابزين آخر ملتف، وعليه أثر تذكاري أو شاهد قبر، ثم خيال مهدَّد لشجرة حور فضية. نفد صبر المفتش. أشعل لنفسه سيجارة، فهدَّأه عشقه الجديد قليلًا. عاد إلى الغرفة، إلى الأريكة التي كانت أمامها مائدة مستديرة عليها كتب قديمة. «جوستاف بونييه»، «الثروة النباتية الكاملة لفرنسا، سويسرا وبلجيكا». قلَّب في الكتاب الفرنسي، جداول مرسومة بعناية تضم

زهورًا وأعشابًا، بالتأكيد جميلة جدًّا، ومهدئة، غير أنها لم تثر اهتمام المفتش على الإطلاق. دخن سيجارة أخرى. وأخيرًا دخلت ممرضة، امرأة قصيرة حيوية ترتدي نظارة بلا إطار.

سألته:

ـ السيد «متَّى»؟

ـ نعم.

تلفتت الممرضة حولها:

ـ ليس معك أمتعة؟

هز «متَّى» رأسه نافيًا. استغرب من السؤال للحظة. أجاب:

ـ أريد فقط توجيه بعض الأسئلة للبروفيسور.

ـ تعالَ معي من فضلك.

نطقت الممرضة بالجملة وقادت المفتش عبر باب صغير.»

٢٢

«دخل غرفة صغيرة، ولدهشته وجدها بائسة. لم يكن هناك ما يشير إلى أنها غرفة طبيب. على الجدران لوحات شبيهة بتلك المعلقة في الصالون، ثم صور فوتوجرافية لرجال جادين ملتحين وبنظارات بلا إطار، وجوه مخيفة. على ما يبدو مَن سبقوه هنا. غطت الكتب المكتب والكراسي، لم يبق خاليًا سوى مقعد قديم مكسو بالجلد. خلف الملفات كان الطبيب يجلس بمعطفه الأبيض. رجل قصير، نحيل كطائر، وكان يضع هو أيضًا نظارة بلا إطار مثل الممرضة والملتحين المعلقين على الجدران. يبدو أن النظارات من دون إطار إجبارية هنا، أو ربما علامة أو إشارة جماعة سرية، مثل الرهبان الذين يحلقون شعر الرأس في المنتصف ويتركون الحواف.

انصرفت الممرضة. نهض «الوخر» وحيا «متَّى».

قال مرتبكًا بعض الشيء:

ـ مرحبًا بك. استرح. كل شيء هنا رث بعض الشيء. هذه العيادة مبرَّة خيرية، ولذلك لدينا صعوبات مالية.

جلس «متَّى» على المقعد الجلدي، أنار الطبيب مصباح المكتب، إلى هذا الحد كانت الغرفة معتمة.

سأله «متَّى»:

ـ تسمح لي أن أدخن؟

تعجب «لوخر»، ثم قال:

ـ تفضل.

تمعن الطبيب في «متَّى» عبر نظارته المتربة.

ـ لكنك لم تكن تدخن؟

ـ أبدًا.

تناول الطبيب ورقة وبدأ يشخبط، على ما يبدو ملحوظة ما. انتظر «متَّى».

سأله الطبيب وهو يكتب:

ـ ولدتَ يوم ١١ نوفمبر ١٩٠٣، أليس كذلك؟

ـ تمامًا.

ـ أما زلت تسكن فندق «أوربان»؟

ـ الآن في «ركس».

ـ آه، الآن في «ركس». في «فاينبرجر شتراسه». ما زلت إذن تعيش في غرف الفنادق، يا عزيزي «متَّى»؟

ـ يبدو أن هذا يدهشك؟

رفع الطبيب رأسه عن أوراقه. ثم قال:

ـ يا رجل! أنت تسكن منذ ثلاثين عامًا في «زيورخ». شخص آخر يكوِّن عائلة وينجب أطفالًا، ويتطلع إلى المستقبل المزدهر. هل تعيش أي حياة خاصة؟ اعذرني أنني أسأل هكذا.

ـ فهمت.

هكذا أجاب «متَّى»، الذي أدرك فجأة كل شيء، أيضًا سؤال الممرضة عن الحقائب.

ـ لا بد أن اللواء أخبرك.

وضع الطبيب قلمه الحبر بعناية إلى جانب الأوراق.

ـ ماذا تعني، أيها المبجل؟

قال «متَّى» بلهجة تقريرية داهسًا سيجارته:

ـ لقد تلقيتَ تكليفًا بفحصي، لأنني لا أبدو لشرطة المقاطعة طبيعيًّا تمامًا.

خيم الصمت على الرجلين. أمام النافذة تمدد الضباب، بليدًا. غروب رمادي لا وجه له كان يزحف إلى الغرفة الصغيرة المكتظة بالكتب والملفات. ثم البرودة، والهواء العطن، مختلطًا برائحة دواء ما.

نهض «متَّى»، وسار إلى الباب وفتحه. رجلان، كل منهما بمعطف أبيض، يقفان خلف الباب، وقد شبك كل منهما ذراعيه فوق صدره. أغلق «متَّى» الباب مرة ثانية.

ـ حارسان. في حالة إذا عملت مشاكل.

لم يخرج «لوخر» عن طوره.

ـ أصغِ إليَّ جيدًا يا «متَّى». أريد أن أتحدث معك الآن كطبيب.

أجاب «متَّى»:

ـ كما تريد.

وجلس.

تناول «لوخر» من جديد القلم الحبر وواصل كلامه

قائلًا إنهم أخبروه بأن «متَّى» قام في الفترة الأخيرة بأفعال لا يمكن وصفها بأنها عادية. ولذلك، لا بد من التحدث معه بصراحة. «متَّى» يمارس مهنة قاسية، ولا بد أنه يتصرف بقسوة أيضًا مع الناس الذين يقتربون منه، ولهذا فعليه أن يكون عادلًا ويسامحه ـ أي الطبيب ـ عندما يتحدث معه مباشرة لأن مهنته أيضًا جعلته قاسيًا، وشكاكًا. كما أن الأمر غريب، إذا فكر في سلوك «متَّى»، أن يترك فرصة فريدة كالسفر إلى الأردن، هكذا فجأة، بين عشية وضحاها. وهذا الهاجس المسكون به، هاجس البحث عن قاتل تم القبض عليه فعلًا، ثم هذا القرار الفجائي بالتدخين، وشرب أربع كؤوس من الكونياك بعد لتر من النبيذ المعتق. الأمر يوحي، «يا رجل»، بتغير فجائي في الشخصية، أعراض بداية مرض. من مصلحة «متَّى» أن يخضع للفحص الطبي الدقيق، حتى تتكون لنا صورة صحيحة عن حالته، سواء من الناحية الإكلينيكية أو النفسية، لهذا يقترح أن يبقى بضعة أيام في «روتن».

صمت الطبيب وانشغل مرة أخرى بأوراقه، وبدأ في الشخبطة ثانيةً.

ـ هل ترتفع درجة حرارتك بين الحين والآخر؟

ـ لا.

ـ صعوبات في التحدث؟

ـ أيضًا لا.

ـ أصوات؟

ـ هراء.

ـ هل تتصبب عرقًا فجأة؟

هز «متَّى» رأسه. عتمة الغروب وثرثرة الطبيب جعلتاه يفقد صبره. راحت يده تبحث عن السجائر. وجدها أخيرًا. أمسك بالثقاب المشتعل، الذي قدمه الطبيب له، بيد ترتعش. غضبًا. كان الموقف في غاية البساطة، كان لا بد عليه أن يتوقعه وأن يبحث عن محلل نفسي آخر. لكنه يحب هذا الطبيب الذي كانوا يستعينون به في مقر الشرطة، لطيبته أكثر من خبرته، كان يثق به، لأن الأطباء الآخرين كانوا ينظرون إليه نظرة دونية، لأنهم كانوا يرونه غريب الأطوار وخياليًّا.

ـ أنت منفعل.

قالها الطبيب في نبرة تكاد تكون مبتهجة.

ـ هل أنادي الممرضة؟ إذا كنت تريد الآن أن تذهب إلى حجرتك...

رد عليه «متَّى»:

ـ لن أفعل ذلك إطلاقًا. هل لديك كونياك؟

قال الطبيب مقترحًا:

ـ سأعطيك مادة مهدئة.

ثم نهض.

رد عليه المفتش بخشونة:

ـ لا أحتاج إلى مادة مهدئة، أحتاج إلى كونياك.

لا بد أن الطبيب ضغط على زر مخبأ، إذ ظهر الحارس عند الباب.

أمره الطبيب فاركًا يديه، بالتأكيد من البرد:

ـ أحضر زجاجة كونياك وكأسين من شقتي.

ثم أضاف:

ـ بسرعة!

اختفى الحارس.

ـ ولكن، فعلًا يا «متَّى»، أرى أن دخولك المصحة أمر ضروري للغاية. وإلا فإننا على أعتاب انهيار عظيم، عصبيًّا وبدنيًّا. ونحن نريد أن نتجنبه، أليس كذلك؟ ببعض العزم ستتمكن من ذلك.

لم يُجب «متَّى» عن ذلك. الطبيب أيضًا صمت. رن جرس التلفون مرة واحدة، فتناول «لوخر» السماعة وقال:

ـ لا أريد أن أتحدث مع أحد.

أمام النافذة كادت العتمة أن تسود، على هذا النحو أظلم المساء فجأة.

سأل الطبيب لمجرد أن يقول شيئًا:

ـ هل أضيء المصباح؟

ـ لا.

استعاد «متَّى» هدوءه في تلك الأثناء. عندما رجع الحارس بالكونياك، صب لنفسه كأسًا، ثم تجرعها كلها، وصب كأسًا أخرى، ثم قال:

ـ «لوخر»، دعك من هذا الكلام، ومن عبارات «يا رجل» و«بسرعة»، إلى آخره. أنت طبيب. هل صادفتك مرة في مهنتك حالة عجزت عن حلها؟

نظر الطبيب إلى «متَّى» متعجبًا. أثَّر فيه هذا السؤال، ولم يعرف لماذا طُرح.

أجاب في النهاية بصدق:

ـ معظم الحالات هنا لا حل لها.

لكنه في اللحظة نفسها شعر أنه لم يكن عليه أبدًا أن يجيب إجابة كهذه أمام مريض، وهو كان ينظر إلى «متَّى» باعتباره كذلك.

أجاب «متَّى» بسخرية أحزنت الطبيب:

ـ أتخيل هذا في مهنة كمهنتك.

ـ هل جئت إلى هنا لتسألني هذا السؤال فقط؟

ـ أيضًا.

تساءل الطبيب مرتبكًا:

ـ يا إلهي، ماذا جرى لك؟ أنت في المعتاد أعقل رجل فينا؟

أجاب «متَّى» بصوت مهزوز:

ـ لا أعرف. البنت المقتولة.

ـ «جريتلي موزر»؟

ـ أفكر دومًا في هذه البنت.

ـ تشغل بالك دومًا؟

سأله «متَّى»:

ـ هل لديك أطفال؟

أجاب الطبيب بصوت خافت ومرتبك من جديد:

ـ أنا غير متزوج أيضًا.

ـ هكذا، أيضًا.

ثم خيم على «متَّى» صمت كئيب. بعد فترة قال:

ـ اسمعني يا «لوخر»، لقد نظرت إلى البنت بدقة، ولم أشح بوجهي مثل خليفتي، الإنسان الطبيعي «هنتسي»: رأيت جثة مشوهة بين أوراق الشجر، الوجه فقط لم يمس، وجه طفلة. حملقت فيها، بين الشجيرات كان الفستان الأحمر ما زال موجودًا، وكذلك السميط. لم يكن ذلك هو الشيء الفظيع.

صمت «متَّى» مجددًا. كالمفزوع. كان في المعتاد لا يتحدث أبدًا عن نفسه، والآن وجد نفسه مرغمًا على ذلك، لأنه كان يحتاج إلى هذا الطبيب القصير الشبيه بالطائر، ذي النظارة المضحكة، لأنه الوحيد الذي يستطيع أن يساعده، ولذلك لا بد أن يمنحه ثقته.

استكمل كلامه أخيرًا:

ـ لقد تعجبتَ من قبل أنني ما زلت أسكن في فندق. عندك حق. لم أكن أريد مواجهة العالم، صحيح أنني كنت أريد التغلب عليه بروتينية، ولكن من دون أن أعاني معه. أردت أن أحتفظ بتفوقي عليه، ألا أفقد رأسي، أن أسيطر

عليه كأنني مهندس. تحملت النظر إلى الفتاة، ولكن عندما وقفت أمام الوالدين شعرت فجأة بأنني لم أعد أتحمل، عندئذ تملكتني الرغبة في الهرب من ذلك البيت الملعون في «موزباخ»، وهكذا أقسمت برحمة والديَّ أن أقبض على القاتل، فقط حتى لا أجد نفسي مرغمًا على النظر إلى معاناة الوالدين أكثر من ذلك، من دون أن أهتم بعدم قدرتي على الوفاء بوعدي، لأنني يجب أن أسافر إلى الأردن. وبعد ذلك تملكتني اللامبالاة مرة أخرى يا «لوخر». كان ذلك فظيعًا. لم أدافع عن البائع المتجول. تركت كل شيء يأخذ مساره. عدت لأكون اللاشخص الذي كنته من قبل، «متَّى إلى أبد الآبدين» كما يطلقون عليَّ في «نيدردورف». هربت عائدًا إلى هدوئي، إلى الشعور بالتفوق، إلى لياقتي المعتادة، إلى اللاإنسانية، حتى رأيت الأطفال في المطار.

أزاح الطبيب ملاحظاته جانبًا.

قال «متَّى»:

ـ عدتُ من حيث أتيت. والبقية تعرفها.

تساءل الطبيب:

ـ والآن؟

ـ والآن، أنا هنا. لأنني لا أعتقد أن البائع المتجول هو المذنب، ولأن عليَّ أن أفي بوعدي.

نهض الطبيب وسار إلى النافذة.

ثم ظهر الحارس، ومن خلفه الآخر.

قال الطبيب:

ـ اذهبا إلى القسم، لست بحاجة إليكما.

صب «متَّى» لنفسه كأسًا من الكونياك، وضحك.

ـ طعمه جيد، «الريمي مارتان» هذا.

كان الطبيب لا يزال واقفًا عند النافذة، محملقًا في الخارج. تساءل بضعف:

ـ كيف يمكنني أن أقدم لك العون؟ لستُ خبيرًا جنائيًّا.

ثم التفت إلى «متَّى» وسأله:

ـ ولكن لماذا تعتقد ببراءة البائع المتجول؟

ـ انظر هنا.

وضع «متَّى» ورقة على المكتب وفتحها بعناية. كانت رسمة أطفال. بالأسفل، إلى اليمين كان مكتوبًا بخط يفتقر إلى اللين: «جريتلي موزر»، وبالقلم الملون رجل مرسوم. طويل، أطول

من أشجار التنوب التي كانت تحيط به كأنها أعشاب غريبة. الرجل مرسوم كما يرسم الأطفال: نقطة، نقطة، فاصلة، شرطة، دائرة، هذا هو الوجه. يرتدي ملابس سوداء ويضع على رأسه قبعة سوداء، من يده اليمنى ـ التي كانت عبارة عن قرص مستدير مرسوم بخمسة خطوط ـ كانت حلقات صغيرة بها شعر كثيف، كالنجوم، تتساقط على بنت ضئيلة الحجم، أصغر من التنوب. في أعلى الصفحة، أي في السماء، كانت هناك سيارة سوداء، وإلى جوارها حيوان غريب بقرون عجيبة.

قال «متَّى» موضحًا:

ـ هذه الرسمة رسمتها «جريتلي موزر». أحضرتها من الفصل.

تساءل الطبيب وهو يتأمل الرسمة في حيرة:

ـ وماذا تمثل؟

ـ عملاق القنافذ.

ـ ماذا تعني بذلك؟

شرح «متَّى» مشيرًا إلى الحلقات الصغيرة:

ـ لقد حكت «جريتلي» أن عملاقًا أهداها في الغابة قنافذ صغيرة. الرسمة تصور هذا اللقاء.

ـ وأنت تعتقد...

ـ ليس مستبعدًا تمامًا أن تكون «جريتلي موزر» قد رسمت قاتلها في صورة «عملاق القنافذ».

رد الطبيب مستاءً:

ـ هذا كلام فارغ يا «متَّى». هذه الرسمة ما هي إلا نتاج الخيال، لا تتوهم شيئًا غير موجود.

أجاب «متَّى»:

ـ محتمل. في المقابل فإن السيارة تم رسمها بدقة تجعلني أستطيع أن أحدد نوعها وأقول إنها سيارة أمريكية قديمة. العملاق أيضًا يبدو حيويًا في الرسمة.

قال الطبيب، نافد الصبر:

ـ ليس هناك عمالقة. لا تحكِ لي حكايات خرافية.

ـ رجل طويل ضخم سيتراءى بسهولة لبنت صغيرة كأنه عملاق.

نظر الطبيب إلى «متَّى» متعجبًا.

ـ أنت تعتقد أن القاتل رجل طويل ضخم؟

قال المفتش مراوغًا:

ـ هذا بالطبع مجرد ظن. إذا كان صحيحًا فإن القاتل يسير في الطرقات بعربته الأمريكية القديمة السوداء.

رفع «لوخر» نظارته وثبتها على جبهته. تناول الرسمة وتأملها بعناية، ثم تساءل في نبرة تنم عن عدم الثقة:

ـ ماذا عليَّ أن أفعل؟

قال «متَّى» شارحًا:

ـ إذا افترضنا أنه ليس لدينا أي شيء عن القاتل سوى هذه الرسمة، فإنها الأثر الوحيد الذي يمكن أن أتعقبه. ولكنني في هذه الحالة أكون مثل فلاح أمام صورة بأشعة إكس. لن أعرف كيف أفسر الرسمة.

هز الطبيب رأسه، وأجاب واضعًا الصورة على المكتب مجددًا:

ـ من هذه الصورة لا يمكن أن نستشف شيئًا عن القاتل. من الممكن فقط أن نقول شيئًا عن البنت التي رسمتها. لا بد أن «جريتلي» كانت بنتًا ذكية ويقظة الحواس ومرحة. الأطفال لا يرسمون ما يرونه فحسب، بل أيضًا ما يشعرون به أثناء الرؤية. الخيال والواقع يختلطان. وهكذا فإن هناك أشياء حقيقية في هذه الرسمة، الرجل الطويل، السيارة، البنت، وهناك أشياء أخرى تبدو مشفرة، القنافذ، الحيوان ذو القرون الكبيرة. ألغاز في ألغاز. والحل، هه، الحل أخذته «جريتلي» معها إلى

القبر. أنا طبيب، لستُ محضِّر أرواح. اطوِ رسمتك ثانيةً. مواصلة الانشغال بها مجرد هراء.

ـ أنت لا تجرؤ على التفسير، هذا هو كل شيء.

ـ أنا أكره الأشياء المضيعة للوقت.

قال «متّى»:

ـ ما تسميه أنت تضييعًا للوقت، ربما يكون طريقة قديمة فحسب. أنت عالِم، وتعلم ما هي «فرضية العمل». اعتبر افتراضي أننا بهذه الرسمة وجدنا القاتل، فرضية عمل. ساير تخيلي وابحث معي عن النتيجة.

تطلع «لوخر» لحظة إلى المفتش واستغرق في التأمل، ثم تمعن في الرسمة من جديد، وتساءل:

ـ ما هو شكل البائع المتجول؟

ـ ليس به ما يلفت النظر.

ـ ذكي؟

ـ لم يكن غبيًا، ولكنه كان كسولًا.

ـ ألم يصدر ضده حكم قضائي بسبب ارتكاب جريمة آداب؟

ـ لقد فعل شيئًا مع فتاة في الرابعة عشرة.

ـ علاقات مع إناث أخريات؟

أجاب «متّى»:

ـ يعني، كبائع متجول؛ كان يحيا حياة برية في هذه المنطقة.

بدأ «لوخر» يهتم بالموضوع. كانت هناك حلقة مفقودة. قال مدمدمًا:

ـ خسارة أن هذا «الدون جوان» قد اعترف وشنق نفسه. لا يبدو لي أنه يقتل لإشباع شهوته. ولكن فلننطلق من افتراضاتك. حسب المظهر من الممكن جدًّا أن يكون «عملاق القنافذ» في الرسمة قاتلًا لإشباع الشهوة. إنه يبدو طويلًا وضخمًا. الأشخاص الذين يرتكبون مثل هذه الأشياء مع الأطفال هم في معظم الحالات بدائيون، من الممكن القول إنهم مختلون في قدراتهم العقلية، أو بلغتنا نحن الأطباء: بُله أو معتوهون، بنيتهم قوية، يميلون للعنف، ويعانون من العنَّة وعقد النقص تجاه النساء.

توقف عن الكلام كأنه اكتشف شيئًا، ثم قال:

ـ غريبة.

ـ ماذا؟

ـ التاريخ المدون تحت الرسمة.

ـ ماذا به؟

ـ أكثر من أسبوع قبل القتل. لا بد أن «جريتلي موزر» قابلت قاتلها قبل الجريمة، إذا كانت فرضيتك صحيحة يا «متّى». العجيب في هذه الحالة أنها حكت لقاءها به في صورة حكاية خرافية.

ـ طريقة الأطفال.

هز «لوخر» رأسه، ثم قال:

ـ حتى الأطفال لا يفعلون شيئًا بدون سبب. من المحتمل أن يكون الرجل الأسمر الطويل منع «جريتلي» من أن تحكي شيئًا عن لقائهما الغامض. والبنت الصغيرة المسكينة أطاعته وحكت حكاية خرافية بدلًا من الحقيقة، وإلا لكان أحدٌ قد اشتبه بالأمر وأنقذها. أعترف أن الحكاية ستكون ملعونة في هذه الحالة. هل اغتُصِبت البنت؟

سأل من دون تمهيد.

أجاب «متّى»:

ـ لا.

ـ والشيء نفسه حدث للبنتين اللتين قُتِلتا قبل عدة أعوام في «سان جالن» ومقاطعة «شفيتس»؟

ـ بالضبط.

ـ بمدية حلاقة أيضًا؟

ـ أيضًا.

صب الطبيب لنفسه هو أيضًا كأسًا من الكونياك، ثم قال:

ـ جرائم القتل لم ترتكب لإشباع الشهوة. إنها فعل ثأري، أراد القاتل من خلال هذه الجرائم الثأر من النساء، سواء كان قاتل «جريتلي» المسكينة هو البائع المتجول أو «عملاق القنافذ».

ـ ولكن البنت الصغيرة ليست امرأة.

أصر «لوخر» على رأيه:

ـ ولكنها قد تحل محل المرأة عند المرضى.

وأضاف مفسرًا:

ـ لأن القاتل لا يجرؤ على المساس بالنساء البالغات، فإنه يتجرأ على الفتيات الصغيرات. يقتلهن بديلًا عن قتل المرأة. ولذلك فإنه يرتكب أفعاله دومًا مع الطراز نفسه من البنات. ادرس الأمر، وستجد أن الضحايا كلهن متشابهات. ولا تنس أنه إنسان بدائي، سواء كان القاتل وُلِد معتوهًا، أو أصبح هكذا من خلال

المرض. هؤلاء الأشخاص لا يتحكمون في غرائزهم. القدرة على المقاومة التي يواجهون بها ميولهم ضعيفة للغاية، الأمر بحاجة إلى شيء بسيط جدًّا، أن يحدث تغير في التمثيل الضوئي، مثلًا، أو أن تستعيد خلايا نشاطها، وعندها يتحول الإنسان إلى حيوان.

ـ وسبب ثأره؟

أمعن الطبيب مفكرًا.

ـ ربما صراعات جنسية.

وأضاف شارحًا بعد برهة:

ـ ربما تعرض الرجل إلى قمع امرأة أو إلى استغلالها. ربما كانت زوجته ثرية وهو فقير. ربما كانت تتمتع بمكانة اجتماعية أعلى منه.

قال «متَّى»:

ـ كل هذا لا ينطبق على البائع المتجول.

هز الطبيب كتفيه.

ـ سينطبق عليه شيء آخر إذن. بين الرجل والمرأة تحدث أحيانًا أكثر الأشياء لامعقولية.

تساءل «متّى»:

ـ إذا لم يكن القاتل هو البائع، فهل خطر ارتكاب جرائم قتل أخرى ما زال قائمًا؟

ـ متى وقعت جريمة القتل في «سان جالن»؟

ـ منذ خمس سنوات.

ـ وفي مقاطعة «شفيتس»؟

ـ منذ سنتين.

قال الطبيب:

ـ الفترة الزمنية الفاصلة تضيق بين حالة وأخرى. قد يشير هذا إلى استفحال المرض. يبدو أن مقاومة المؤثرات تزداد ضعفًا، وربما يرتكب المريض جريمة قتل جديدة في غضون عدة أشهر، أو حتى أسابيع، إذا وجد فرصة مواتية.

ـ وسلوكه في تلك الأثناء؟

قال الطبيب مترددًا:

ـ في البداية سيشعر المريض كأنه استراح. ولكن سريعًا سيتراكم كرهه من جديد، وسيشعر باحتياج جديد إلى

الثأر. سيكون بدايةً بالقرب من أطفال. أمام المدارس مثلًا، أو في الساحات العامة. وشيئًا فشيئًا سيبدأ في التجول بسيارته ثانيةً والبحث عن ضحية جديدة، وعندما يجد البنت سيصادقها مرة أخرى، إلى أن يتكرر الحدث.

صمت «لوخر».

تناول «متَّى» الرسمة، وطواها، ثم أدخلها في جيب الصدر، وحملق في النافذة حيث كان الليل قد حل.

ـ تمنَّ لي حظًّا طيبًا يا «لوخر»، حتى أعثر على «عملاق القنافذ».

أرسل الطبيب إليه نظرة متأثرة، وأدرك فجأة ما يعنيه «متَّى»، ثم قال:

ـ أنت ترى «عملاق القنافذ» أكثر من مجرد افتراض، أليس كذلك يا «متَّى»؟

اعترف «متَّى» بذلك:

ـ أنا أراه حقيقة. لا أشك لحظة في أنه القاتل.

كل ما قاله له ليس إلا تكهنات، محض تلاعب بالأفكار بدون أية قيمة علمية، هكذا قال الطبيب شارحًا، وغاضبًا من أنه خُدع، وأنه لم يستطع النفاذ إلى أفكار «متَّى».

لقد أشار إلى إمكانية واحدة بين آلاف من الإمكانيات. بالطريقة نفسها من الممكن البرهنة على أن أي شخص آخر هو القاتل، ولِمَ لا، فكل هراء من الممكن أن يحدث، ومن الممكن تبريره منطقيًا على نحو ما، هذا شيء يعلمه «متَّى» تمامًا، وهو ـ «لوخر» ـ أخبره بنات أفكاره بسبب أريحيته، والآن على «متَّى» أن يكون رجلًا ينظر إلى الواقع بدون أي افتراضات، عليه أن يتحلى بالشجاعة ويتقبل الوقائع التي تبرهن برهانًا قاطعًا على أن البائع هو المذنب. رسوم الأطفال ليست إلا نتاج الخيال، هذه الرسمة قد تتطابق مع مقابلة بين البنت وإنسان ليس هو القاتل على الإطلاق، ولا يمكن أن يكون قاتلًا.

أجابه «متَّى»:

ـ دع الأمر لي، وسأرى أي درجة من الاحتمال ينطبق عليها شرحك.

وأفرغ آخر جرعة من كأس الكونياك في جوفه.

لم يُجب الطبيب على الفور. كان قد جلس ثانيةً خلف مكتبه، محاطًا بكتبه وملفاته، مدير مصحة عفى عليها الزمن منذ وقت طويل، ينقصها المال والاحتياجات الأساسية، وفي خدمة هذه المصحة كان يحاول يائسًا أن يفعل شيئًا.

قال منهيًا كلامه في نبرة متعبة ومريرة:

ـ «متَّى». أنت تحاول أمرًا مستحيلًا. لا أريد أن أستخدم كلمات كبيرة مؤثرة. للإنسان إرادة وطموح وكبرياء، ولا يستسلم بسرعة. هذا شيء أدركه جيدًا، أنا أيضًا كذلك. ولكن، إن أردت الآن البحث عن قاتل ليس له وجود على الإطلاق، وخارج كل الاحتمالات، فإن الأمر يكون خطيرًا، وحتى إذا كان له وجود فلن تعثر عليه أبدًا، لأن هناك كثيرين على شاكلته، لكن الصدفة وحدها لا تجعلهم يقتلون. اختيارك للجنون طريقًا قد يكون شجاعة، أعترف لك بهذا، والمواقف المتطرفة تثير إعجاب الناس في أيامنا هذه، ولكن إذا لم يؤدِّ هذا الطريق إلى الهدف، فلن يتبقى لك ـ على ما أخشى ـ سوى الجنون.

فقال له «متَّى»:

ـ وداعًا يا دكتور «لوخر».»

٢٣

«بعث لي «لوخر» تقريرًا بمحتوى الحديث. كالمعتاد كان خطه الألماني الضئيل الدقيق صعب القراءة للغاية. طلبت من «هنتسي» المجيء. يجب عليه هو أيضًا أن يدرس الوثيقة. كان رأيه أن الطبيب نفسه يتحدث عن افتراضات لا أساس لها. لم أكن متأكدًا من المسألة مثله، بدا لي الطبيب خائفًا من شجاعته هو نفسه. ولكن الشكوك استولت عليَّ أنا كذلك. لم يكن لدينا اعترافات تفصيلية للبائع نستطيع دراستها، بل اعتراف عام. كما أننا لم نعثر بعد على سلاح الجريمة، لم تكن هناك آثار دماء على أي مدية في سلة البائع. أثار ذلك شكوكي أيضًا. صحيح أن كل ذلك لا يبرئ «فون جونتن»، فنقاط الاشتباه ما زالت قوية، ولكن القلق كان قد استولى عليَّ. كما أنني وجدت سلوك «متَّى» منطقيًّا، وهو ما لم أعترف به. أثرت غضب وكيل

النيابة وأمرت بفحص الغابة المحيطة بـ«ميجندورف» كلها مجددًا، ولكننا لم نحصل على أي نتائج. لم نستطع العثور على سلاح الجريمة. قد يكون في مجرى مائي من مجاري الغابة كما يعتقد «هنتسي».

ـ والآن...

قالها، وسحب سيجارة من علبة سجائره المعطرة القميئة، وتابع:

ـ لا نستطيع بالفعل أن نقوم بأكثر من ذلك. إما يكون «متّى» مجنونًا، أو نحن. علينا أن نقرر الآن.

أشرت إلى الصور التي أمرت بإحضارها. البنات الثلاث كن متشابهات.

ـ هذا يشير مرة ثانية إلى «عملاق القنافذ».

أجاب «هنتسي» ببرود:

ـ لماذا؟ تتوافق البنات مع مزاج البائع المتجول.

ثم ضحك.

ـ أنا أتعجب مما يفعله «متّى». لا أريد أن أكون محله.

قلت مزمجرًا:

ـ لا تستهن به. إنه يستطيع فعل كل شيء.

ـ هل سيعثر على قاتل غير موجود يا سيادة اللواء؟

أجبت:

ـ ربما.

وأعدت الصور إلى الملف.

ـ كل ما أعرفه أن «متَّى» لن يستسلم.

وكنت محقًّا. الخبر الأول جاءني من رئيس شرطة المدينة. كنا في أحد الاجتماعات للتشاور في حالة معقدة، ولما حانت لحظة الوداع، تحدث هذا الإنسان التعيس عن «متَّى». بالتأكيد لكي يغيظني. عرفت منه أن «متَّى» شوهد مرارًا في حديقة الحيوان، كما أنه اشترى من إحدى ورش السيارات في ميدان «إشر فيس» سيارة قديمة من طراز «ناش». بعد ذلك بفترة قصيرة جاءني خبر آخر أربكني تمامًا. حدث ذلك في مطعم «كرونن-هاله»، في مساء يوم أحد، ما زلت أتذكر جيدًا. من حولي كانت تجلس كوكبة من ذواقة «زيورخ» ومشاهيرها، وبينهم خادمات المطعم يتحركن بنشاط وهمة، البخار يتصاعد من عربة المأكولات التي تمر بين الموائد، ومن الشارع نفذ إلينا ضجيج السير. كنت أجلس تحت لوحة «ميرو» أتناول حساء «ليبركنودل»، ولا أفكر في شيء ذي بال. عندئذ بادرني وكيل إحدى

شركات الوقود الكبيرة بالحديث. جلس إلى المائدة من دون أن يسأل. كان منتشيًا قليلًا وماجنًا في تصرفاته، طلب كأسًا من براندي «مارك»، ثم حكى لي ضاحكًا أن مرؤوسي السابق، الملازم أول، قد غيَّر مهنته، وتولى إدارة محطة وقود في مقاطعة «جراوبوندن» بالقرب من «كور»، وهي محطة كانت الشركة تريد التخلص منها لأنها لا تحقق أرباحًا.

في البداية لم أصدق هذا الخبر. بدا لي ملفقًا وطائشًا وبلا معنى.

ولكن الوكيل أصر على كلامه. وقال مفتخرًا إن «متَّى» يحقق نجاحًا في مهنته الجديدة. محطة الوقود تزدهر. «متَّى» عنده زبائن كثيرون. وكلهم تقريبًا من أولئك الذين كان يتعامل معهم في السابق، وإن كان السبب مختلفًا. لا بد أن الخبر ذاع وانتشر، أن «متَّى إلى أبد الآبدين» ترقى حتى أصبح عاملًا في محطة وقود، وهكذا فإن زملاءه السابقين يأتون من كل الجهات ويقصدونه بسياراتهم. سيارات من عصر ما قبل الطوفان وصولًا إلى أغلى أنواع «المرسيدس». محطة وقود «متَّى» أصبحت كعبة يقصدها العالم السفلي في شرق سويسرا بأكملها. معدلات بيع الوقود ارتفعت ارتفاعًا ضخمًا. قبل فترة قصيرة ركبت

الشركة عمودًا آخر لضخ الوقود السوبر. كما أنهم عرضوا عليه بناء مبنى حديث بدلًا من البيت المتهالك الذي يسكنه الآن. لكنه رفض شاكرًا، كما لم يوافق على توظيف مساعد له. كثيرًا ما تقف السيارات والدراجات النارية طابورًا أمام المحطة، من دون أن يفرغ صبر أحد. يبدو أن المترددين يشعرون بشرف كبير عندما يقوم ملازم أول سابق من شرطة المقاطعة بخدمتهم.

لم أعرف بماذا أجيب. حيَّاني الوكيل وانصرف. عندما اقتربت عربة المأكولات وتصاعد منها البخار، لم تكن لديَّ شهية حقيقية، فلم آكل إلا قليلًا، وطلبت بيرة. بعد ذلك أتى «هنتسي» كالمعتاد مع زوجته «هوتينجر»، مظلم الوجه لأن تصويتًا لم يكن في صالحه، ثم استمع إلى الخبر الجديد، فكان رأيه أن «متَّى» فقدَ عقله الآن، كما تنبأ دومًا، وفجأة أصبح مزاجه في أحسن حال، أكل قطعتين من «الإستيك» بينما كانت «هوتينجر» تتحدث بلا انقطاع عن المسرح، وعن الذين تعرفهم هناك.

بعد عدة أيام رن جرس التلفون. أثناء انعقاد اجتماع. وبالطبع شرطة المدينة من جديد. مديرة بيت للأيتام. الآنسة العجوز رَوت لي بصوت منفعل أن «متَّى» جاءها، مرتديًا ملابس احتفالية، سوداء بالكامل، على ما يبدو

كي يترك لديها انطباعًا بالجدية، وسألها عما إذا كان من الممكن أن يأخذ من دائرة الأطفال الذين توفر لهم الحماية ـ هكذا قالت ـ بنتًا معينة. هذه الطفلة وحدها هي ما تهمه؛ كان دومًا يرغب في أن يكون لديه طفل، والآن، بما أنه يدير وحده محطة وقود في «جراوبوندن»، فإنه يستطيع أيضًا أن يربي الطفلة. بالطبع رفضت هذا الطلب، بأدب، مشيرةً إلى لوائح الملجأ، ولكن مرؤوسي السابق برتبة ملازم أول ترك لديها انطباعًا غريبًا للغاية، ولذلك رأت أن من واجبها أن تخبرني. ثم وضعَت السماعة. كان هذا بالفعل أمرًا عجيبًا. رحت أسحب أنفاسًا من سيجاري «الباهيانوس» وأنا مشدوه. ولكن حادثة أخرى جعلتنا في إدارة الشرطة في «كازيرنن–شتراسه» لا نصدق سلوك «متّى». كنا قد استدعينا شخصًا مريبًا للغاية كي نحقق معه، قوادًا يعمل على نحو غير رسمي. رسميًّا كان يعمل «كوافير» سيدات، كان يسكن في فيلّا ضخمة في قرية طالما تغزل بها الشعراء تقع فوق بحيرة. على كل حال كانت حركة السيارات الأجرة والخاصة إلى هناك أكثر من نشيطة. ما كدت أبدأ التحقيق معه حتى فاجأنا بما في جعبته. أشرق وجهه بهجةً وهو يعرض علينا الخبر الجديد. كان «متّى» يعيش في محطته مع «هِلر». اتصلت فورًا بنقطة الشرطة في «كور» المسؤولة عن المنطقة:

كان الخبر صحيحًا. وقعت في بئر من الصمت، الوقائع أصابتني بالخرس. جلس «كوافير» السيدات أمام مكتبي منتصرًا وهو يلوك اللبان. استسلمت، وأمرت بإطلاق سراح المذنب القديم. عليه اللعنة، لقد انتصر علينا.

دقت الحادثة أجراس الإنذار. سيطرت الدهشة عليَّ، «هنتسي» تملكه الغضب، ووكيل النيابة شعر بالاشمئزاز، أما مجلس حكومة المقاطعة الذي سمع بالأمر أيضًا، فكان يتحدث عن فضيحة. كانت «هِلر» قد نزلت ضيفةً علينا في «كازيرنن-شتراسه». زميلة لها ـ فلنقل: سيدة معروفة في المدينة هي الأخرى ـ قُتلت؛ كنا نشك أن «هِلر» تعرف عن الحادثة أكثر مما روت لنا، وبعد ذلك تم إبعادها فجأة عن مقاطعة «زيورخ» على الرغم من أنه ـ إذا غضضنا النظر عن مهنتها ـ لم يكن لدينا في الحقيقة أي شيء ضدها. غير أن هناك دومًا أشخاصًا في الإدارة لديهم أحكامهم المسبقة. قررت التدخل والسفر إلى هناك. شعرت أن سلوك «متَّى» له علاقة بـ«جريتلي موزر»، ولكنني لم أدرك كنه العلاقة. جهلي أغضبني وأقلقني، أضف إلى ذلك فضولي الجنائي. باعتباري رجل الأمن والنظام كنت أريد أن أعرف ماذا يحدث هناك.»

٢٤

«بدأت رحلتي. بسيارتي، وحدي. كان يوم الأحد، مرة أخرى، ويُهيأ لي ـ عندما ألقي الآن نظرة إلى الوراء ـ أن أشياء كثيرة مهمة في هذه القصة حدثت في أيام الآحاد. في كل مكان تدق الأجراس، وكأن رنين الأجراس وقرعها قد ملأ البلد كله، وفوق كل هذا تورطت ـ على نحو لا أعلم سببه ـ بالسير وراء موكب في مقاطعة «شفيتس». في الشارع سيارة وراء الأخرى، وفي الراديو عظة وراء الثانية. فيما بعد انطلقت الرصاصات والصفارات والأصوات المختلفة أمام أكشاك التنشين في كل قرية. حل اضطراب ضخم عبثي وساد المكان، وكأن شرق سويسرا كله قد شملته الحركة والنشاط؛ في مكان ما كان يجري سباق للسيارات، ثم سيارات لا تحصى من غرب سويسرا، عائلات بأكملها في

السيارات تغادر المنطقة، قبائل بأكملها تقترب منا، وعندما وصلت إلى محطة الوقود أخيرًا التي تعرفها أنت أيضًا، كنت أشعر بالإنهاك من كل هذا الضجيج في يوم الأحد الهادئ. تلفتُّ حولي. لم يكن مظهر المحطة مهملًا كاليوم. كانت تثير انطباعًا باللطف، كل شيء نظيف، وعلى النوافذ زهور الجيرانيوم. كما لم تكن الخمور تقدم آنذاك في المحطة. كان كل شيء يبدو راسخًا وبورجوازيًّا صغيرًا. في كل مكان على طول الشارع كانت أشياء عديدة تشير إلى وجود طفل، أرجوحة، بيت دمى كبير فوق إحدى الدكك، عربة للدمى، حصان أرجوحة. كان «متَّى» يخدم زبونًا انطلق مسرعًا بسيارته «الفولكس فاجن» عندما نزلت من سيارتي «الأوبل». بجانب «متَّى» كانت تقف فتاة، في السابعة أو الثامنة، دمية تحت ذراعها. لها ضفائر شقراء، وترتدي فستانًا قصيرًا أحمر. بدت البنت وكأنني أعرفها، من دون أن أعرف السبب، فهي لم تكن تشبه «هِلر» على الإطلاق.

قلت مشيرًا إلى السيارة «الفولكس فاجن» المبتعدة:

ـ ألم يكن هذا «ماير الأحمر»؟ أُطلق سراحه قبل عام فقط.

سألني «متَّى» لا مباليًا:

ـ وقود؟

كان يلبس «عفريتة» زرقاء كالتي يرتديها العمال.

ـ سوبر.

ملأ «متَّى» الخزان، ومسح الزجاج.

ـ ١٤,٣٠.

أعطيته خمسة عشر.

قلت عندما أراد أن يرجع لي بقية الفلوس:

ـ الباقي لك.

ولكن في اللحظة التالية احمرَّ وجهي.

ـ سامحني يا «متَّى»، زلة لسان.

أجاب واضعًا الباقي في جيبه:

ـ العفو، العفو. لقد تعودت على ذلك.

سيطر عليَّ الارتباك. تأملت البنت مجددًا، ثم قلت:

ـ بنت صغيرة لطيفة.

فتح «متَّى» لي باب السيارة:

ـ أتمنى لك رحلة سعيدة.

فقلت مدمدمًا:

ـ في الحقيقة كنت أريد التحدث معك. اللعنة، ما معنى هذا كله يا «متَّى»؟

ـ لقد عاهدتك ألا أواصل إزعاجك بحالة «جريتلي موزر» يا حضرة اللواء. الآن أذكرك بحقي في المقابل بألا تزعجني أنت.

قال ذلك وأعطاني ظهره.

ـ «متَّى»، فلندع لعب العيال هذا.

صمتَ. ثم تصاعد صفير ودوي. لا بد أن هناك كشكًا للتنشين بالقرب من هنا. كانت الساعة نحو الحادية عشرة صباحًا. تفرجت عليه وهو يخدم سيارة «ألفا روميو». ثم قلتُ عندما ابتعدت السيارة:

ـ لقد قضى هو أيضًا عقوبته في السجن، ثلاث سنوات ونصف السنة. ألا ندخل؟ إطلاق النيران يجعلني عصبيًّا. لا أطيقه.

قادني إلى البيت. في الممر قابلنا «هِلر». كانت آتية من القبو حاملة بطاطس. ما زالت امرأة جميلة. كموظف شرطة انتابني بعض الارتباك وتأنيب الضمير. نظرت إلينا متسائلة، للحظة، قلقة بعض الشيء كما بدا لي، ثم حيَّتني

بلطف، وكان الانطباع العام الذي تركته لديَّ طيبًا. بعد أن اختفت المرأة في المطبخ سألته:

ـ هل البنت طفلتها؟

أومأ «متَّى».

ـ من أين أتيت بـ«هِلر»؟

ـ من مكان قريب. كانت تعمل في مصنع طوب.

ـ وما سبب وجودها هنا؟

ـ أنا بحاجة إلى شخص يقوم بشغل البيت.

هززت رأسي. ثم قلت له:

ـ أريد التحدث معك وحدنا.

أمر «متَّى» الطفلة بالانصراف:

ـ «أنَّاماري»، اذهبي إلى المطبخ.

خرجت البنت من الغرفة.

كانت الغرفة فقيرة، لكنها نظيفة. جلسنا إلى مائدة بجوار الشباك. صوت فرقعة هائلة في الخارج. دفعة طلقات وراء الأخرى.

كررت ما قلته:

ـ ما معنى هذا كله يا «متَّى»؟

فأجاب مرؤوسي السابق:

ـ الأمر بسيط جدًّا، يا حضرة اللواء. أنا أصطاد.

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ أقوم بعمل جنائي، يا حضرة اللواء.

بغضب أشعلت سيجارًا.

ـ لست مبتدئًا في المهنة، ولكنني بالفعل لا أفهم أي شيء.

ـ هل تعطيني أنا أيضًا من هذا السيجار؟

ـ تفضل!

وقدمت له العلبة. صب «متَّى» كأسين من «شنابس» الكرز ووضعهما. كنا نجلس في الشمس، كان الشباك نصف مفتوح، وفي الخارج، خلف زهور الجيرانيوم، طقس يونيو المعتدل وأصوات الطلقات. عندما تتوقف سيارة، وهو ما كان يحدث نادرًا لاقتراب الظهيرة، كانت «هِلر» تقوم بالخدمة.

بعد أن أشعل «متَّى» سيجار «الباهيانوس» بعناية، قال:

ـ لقد أخبرك «لوخر» بحديثنا.

ـ لم يساعدنا ذلك في شيء.

ـ ولكن ساعدني أنا.

ـ كيف؟

ـ رسمة الطفلة تتطابق مع الحقيقة.

ـ أهكذا؟ وماذا تعني القنافذ؟

ـ لا أعرف بعد. ولكنني عرفت ماذا يمثل الحيوان بالقرون الغريبة.

ـ ماذا؟

ـ إنه نوع من التيوس الذي يعيش في أعالي الجبال.

قال «متّى» ذلك وسحب نفسًا من سيجاره، ثم نفخ الدخان في الغرفة.

ـ ولهذا كنت في حديقة الحيوان؟

ـ أيامًا عديدة. وطلبتُ من أطفال أن يرسموا هذا التيس الجبلي. ما رسموه يشبه الحيوان في رسمة «جريتلي موزر».

فهمت. قلت له:

ـ التيس الجبلي هو الحيوان المرسوم على شعار مقاطعة «جراوبوندن». شعار هذه المنطقة.

أومأ «متَّى» برأسه، وأضاف:

ـ الشعار الموجود على لوحة أرقام السيارة لفت انتباه «جريتلي».

كان الحل سهلًا. قلت مدمدمًا:

ـ كان علينا أن نتوصل إلى ذلك.

كان «متَّى» يتأمل سيجاره وتزايد الرماد والدخان الخفيف. ثم قال بهدوء:

ـ الخطأ الذي ارتكبناه، حضرتك و«هنتسي» وأنا، هو أننا اعتقدنا أن القاتل يجيء من «زيورخ». ولكنه في الحقيقة من «جراوبوندن». لقد تتبعت كل أماكن وقوع الجريمة، كلها تقع على المسافة بين «جراوبوندن» و«زيورخ».

فكرت في الأمر. وجدت نفسي أقول له معترفًا:

ـ «متَّى»، ربما تكون محقًّا في ذلك.

ـ ليس هذا كل شيء.

ـ وإنما؟

ـ لقد قابلت صيادين من الصبيان.

ـ صيادين من الصبيان؟

ـ صبية يصطادون، إذا شئت الدقة.

حملقت فيه متعجبًا.

أخبَرَني:

ـ اسمع. بعد أن اكتشفت ذلك انطلقت بالسيارة إلى مقاطعة «جراوبوندن». منطقي. ولكن سرعان ما اتضح لي عبثية ما أقوم به. مقاطعة «جراوبوندن» كبيرة جدًّا، وبالتالي يصعب العثور على إنسان لا أعرف عنه شيئًا باستثناء أنه طويل وضخم ولديه سيارة أمريكية سوداء قديمة. أكثر من سبعة آلاف كيلومتر مربع، أكثر من مائة وثلاثين ألف نسمة متفرقون في عدد لا يحصى من الوديان ـ شيء مستحيل. وهكذا كنت أجلس في يوم بارد حائرًا على نهر «الإن»، في إقليم «الإنغادين»، ورحت أشاهد صبية يقفون على ضفة النهر. في اللحظة التي أردت فيها أن أحول وجهي لاحظت أن الأطفال انتبهوا لوجودي. بدا عليهم الرعب. كانوا يقفون مرتبكين هناك. أحدهم كان يمسك بصنارة مصنوعة باليد. قلت له: «واصل الصيد». نظر الصبية لي نظرة مسترية. سألني صبي أحمر الشعر على وجهه نمش، تقريبًا في الثانية عشرة من عمره: «هل أنت من الشرطة؟». أجبت قائلًا: «هل يبدو عليَّ ذلك؟».

رد الصبي: «هه، لا أعرف». فقلت موضحًا: «لا، لستُ من الشرطة». رحت أتفرج عليهم وهم يلقون بالطعم في الماء. كانوا خمسة صبية، كلهم منغمسون تمامًا فيما يفعلونه. بعد برهة، قال الصبي ذو النمش مستسلمًا: «الصنارة لا تغمز». ثم تسلق الضفة وجاء إليَّ، ثم سألني: «هل أجد لديك سيجارة؟». فقلت له: «تطلب سيجارة في عمرك هذا؟». فقال الصبي: «شكلك يقول لي إنك ستعطيني واحدة». فأجبته: «إذن، عليَّ أن أفعل». وقدمت له علبة سجائري «الباريزيان». قال الصبي ذو النمش: «شكرًا، الكبريت معي»، ثم نفخ الدخان من الأنف. قال الصبي بلهجة رجل بالغ: «شعور جميل بعد هذا الفشل الذريع في الصيد». قلت: «ولكن يبدو أن زملاءك لديهم صبر أكثر منك، فهم يواصلون المحاولة، وبالتأكيد سيصطادون شيئًا». قال الصبي مدعيًا: «لن يفعلوا، وإذا حدث فسمكة سلمون صغيرة على أكثر تقدير». فداعبته قائلًا: «وأنت تريد بالتأكيد اصطياد سمكة كراكي». فأجاب الصبي: «الكراكي لا تثير اهتمامي. يهمني السلمون الأرقط. ولكن المسألة تتعلق بالمال». تعجبت وسألته: «كيف؟ فعندما كنت طفلًا كنت أصطاده باليد». هز رأسه ساخرًا. وقال مضيفًا: «كانت هذه أسماكًا صغيرة.

ولكن حاول أن تصطاد سمكة ضخمة باليد. السلمون الأرقط من الأسماك المفترسة، تمامًا مثل الكراكي، غير أنه أصعب في الصيد. كما أن على الصياد أن يكون لديه ترخيص، وهذا يكلف مالًا». فضحكت قائلًا: «ولكنكم تفعلون ذلك من دون مال». قال الصبي شارحًا: «لكن المشكلة أننا لا نستطيع الوقوف في الأماكن المناسبة. هناك يجلس من معه ترخيص». سألته: «ماذا تقصد بـ«المكان المناسب»؟». قال الصبي: «يبدو أنك لا تفهم شيئًا في صيد الأسماك». قلت مجيبًا: «أعترف». جلسنا على المنحدر النهري. «أنت تتخيل أن الصياد يلقي بصنارته هكذا في الماء كيفما اتفق؟». تعجبت قليلًا وسألته عن العيب في ذلك. أجاب الصبي ذو النمش نافخًا الدخان من الأنف مرة أخرى: «هذا ما يفعله المبتدئون دائمًا. على الإنسان أن يعرف شيئين إذا أراد الصيد: المكان والطعم». أصغيت بانتباه إلى ما يقوله. واصل الصبي حديثه قائلًا: «لنفترض أنك تريد اصطياد سلمون أرقط، سمكة ضخمة مفترسة. يجب عليك في البداية أن تعرف ما هي أفضل الأماكن التي يوجد بها السلمون. بالطبع في مكان يكون محميًّا فيه من التيار، ثانيًا: حيثما يكون هناك تيار قوي، لأن في هذه الأماكن

تأتي حيوانات مائية أكثر مندفعة مع التيار، يعني مع اتجاه التيار خلف صخرة كبيرة، أو الأفضل: في اتجاه التيار خلف عمود من أعمدة الجسور. ولكن هذه الأماكن للأسف يشغلها أصحاب التراخيص». قلت معقبًا: «لا بد من قطع التيار». أومأ لي فخورًا: «ها أنت قد فهمت». فسألته: «والطعم؟» فأجاب: «هذا يتوقف على نوع السمك الذي تريد اصطياده، أسماك مفترسة، أم سلمون صغير أم ثعبان، فهذه الأسماك نباتية. الثعبان مثلًا من الممكن أن تصطاده بحبة كرز. ولكن سمكة مفترسة، سلمون أرقط مثلًا أو سمك الفرخ، لا بد أن تصطادها بشيء حي. ببعوضة أو دودة أو سمكة صغيرة». رددت متأملًا وأنا أنهض: «بشيء حي». قلت للصبي: «خذ»، وأعطيته علبة السجائر كلها. «أنت تستحقها. الآن أعرف كيف أصطاد سمكتي. عليَّ أولًا البحث عن المكان المناسب، ثم عن الطعم».

صمت «متَّى». لفترة طويلة لم أقل شيئًا، مرتشفًا من «الشنابس»، ومحملقًا من النافذة في طقس بدايات الصيف الجميل الذي تخترقه الفرقعات. أعدت إشعال سيجاري المطفأ، وأخيرًا قلت:

ـ «متَّى»، الآن أفهم أيضًا ما قصدته عندما تحدثت عن صيد

الأسماك. هنا، في محطة الوقود، هو المكان المناسب، وهذا الطريق هو النهر، أليس كذلك؟

لم تظهر على وجه «متَّى» أية تعبيرات. ثم أجاب بهدوء:

ـ من يريد الانتقال من «جراوبوندن» إلى «زيورخ» لا بد أن يسير على هذا الطريق، إذا أراد تجنب الطريق الملتف الذي يمر بمضيق «الألب».

ـ والبنت هي الطعم.

استولى عليَّ الرعب عندما نطقت بهذه الجملة.

فأجاب «متَّى»:

ـ اسمها «أنَّاماري».

وأدركت قائلًا:

ـ الآن أعرف أيضًا مَن تشبه. القتيلة «جريتلي موزر».

خيم الصمت على كل منا مجددًا. أصبح الطقس أكثر دفئًا في الخارج، لمعت الجبال من وراء بخار الماء، أما إطلاق الرصاص فقد استمر، على ما يبدو فإن القناصين يحتفلون. تساءلت في النهاية:

ـ ألا تستسلم هكذا لفعل شيطاني؟

أجاب «متَّى»:

ـ ربما.

سألته مهمومًا:

ـ أنت تريد الانتظار هنا حتى يمر القاتل ويرى «أنَّاماري» ويقع في الفخ الذي نصبته له؟

ـ لا بد أن يمر القاتل من هنا.

فكرت برهة ثم قلت:

ـ طيب، فلنفترض أنك محق. هذا القاتل موجود. ليس مستبعدًا أن يكون الأمر هكذا. كل شيء ممكن في مهنتنا. ولكن ألا تعتقد أن طريقتك بها مخاطرة كبيرة؟

قال «متَّى» وهو يلقي بعقب السيجار من الشباك:

ـ ليس هناك طريقة أخرى. أنا لا أعرف شيئًا عن القاتل. لا أستطيع البحث عنه. إذن، عليَّ البحث عن ضحيته القادمة، البحث عن بنت، ثم أستخدم الطفلة طُعمًا.

ـ جميل، ولكنك اقتبست طريقتك هذه من عالم صيد الأسماك، وهما شيئان لا ينطبقان تمامًا. لا تستطيع أن تترك البنت دائمًا بالقرب من الطريق كالطعم، لا بد أن تذهب إلى المدرسة، إنها تريد أن تتحرك بعيدًا عن هذا الطريق الريفي الملعون.

أجاب «متَّى» بعناد:

ـ عما قريب تبدأ الإجازة الصيفية.

هززت رأسي، وقلت له:

ـ أخشى أن تكون الفكرة مسيطرة عليك. لا تستطيع أن تبقى هنا حتى يحدث شيء، ربما لن يحدث شيء أبدًا، أعترف أن الاحتمال كبير أن يمر القاتل من هنا يومًا، ولكن ليس معنى ذلك أنه ـ سأظل مع هذا التشبيه ـ سيتناول الطعم الذي تقدمه له. عندئذ ستنتظر وتنتظر...

برأس متحجر أجاب «متَّى»:

ـ على صياد السمك أيضًا أن ينتظر.

اختلست نظرة من الشباك، ورأيت المرأة تخدم «أوبرهولتسر». ست سنوات في سجن «ريجنسدورف».

ـ هل تعرف «هِلر» سبب وجودك هنا يا «متَّى»؟

ـ لا. قلت للمرأة إنني أريد من يعتني بالبيت.

الشعور الذي سيطر عليَّ لم يكن طيبًا على الإطلاق. صحيح أن الرجل ترك انطباعًا لديَّ، وأن طريقته كانت غير معتادة وبها سمات العظمة. فجأة شعرت حياله بالإعجاب، وتمنيت له النجاح، ربما فقط حتى يتواضع

«هنتسي» الفظيع. لكنني اعتبرت ما يفعله ميؤوسًا منه، المخاطرة كبيرة وفرص النجاح ضئيلة.

حاولت أن أعيده إلى صوابه وقلت له:

ـ «متَّى»، ما زال بإمكانك أن تقبل الوظيفة في الأردن، وإلا فإن الإدارة في «برن» سترسل «شافروت».

ـ فليذهب.

لم أستسلم:

ـ أليس لديك رغبة في العمل لدينا من جديد؟

ـ لا.

ـ سنوظفك في البداية في القسم الداخلي، بالشروط القديمة.

ـ لا رغبة لديَّ.

ـ يمكنك أيضًا الانتقال إلى شرطة المدينة. عليك أن تفكر في الأمر، على الأقل ماليًّا.

ـ أنا أكسب ـ كمالك لمحطة الوقود ـ الآن أكثر تقريبًا من المرتب الذي كنت أحصل عليه في خدمة الدولة. ولكن، لقد جاء زبون، ستكون السيدة «هِلر» مشغولة الآن بتحمير شرائح لحم الخنزير.

نهض وانصرف. بعد ذلك تحتم عليه أن يقوم بخدمة زبون آخر. «ليو الوسيم». عندما انتهى من عمله كنت أجلس في سيارتي.

قلت له مودعًا:

ـ «متَّى»، أنت فعلًا لا يمكن مساعدتك.

أجاب معطيًا لي إشارة بأن الطريق خال:

ـ هكذا أنا.

بجانبه كانت تقف البنت بفستانها الأحمر، وعند الباب «هِلر» بمئزرة غير مربوطة، من نظرتها لاحظت من جديد أن الارتياب يملؤها. انطلقت عائدًا.»

٢٥

«وهكذا راح ينتظر. بصلابة وعناد وحماسة. كان يخدم زبائنه، يؤدي عمله، يملأ الوقود، يغير الزيت، يزيد الماء، يمسح الزجاج، دائمًا الحركات الميكانيكية نفسها. بمجرد رجوع الطفلة من المدرسة كانت تظل بجانبه أو بجانب بيت الدمى، تسير بخطوات قصيرة سريعة، تقفز، تندهش، تتحدث مع نفسها، أو تجلس وهي تغني على الأرجوحة بضفائرها المتطايرة وفستانها الأحمر. راح ينتظر وينتظر. كانت السيارات تمر به، سيارات بكل الألوان وكافة الفئات الضريبية، سيارات عتيقة، سيارات جديدة. كان ينتظر. كان يدوِّن أرقام السيارات المسجلة في مقاطعة «جراوبوندن»، ويبحث في الفهرس عن أصحابها، يستعلم تلفونيًّا في الأقسام الإدارية التابعين لها. كانت «هِلر» تعمل في مصنع صغير بالقرب من القرية على سفح الجبال،

ولم تكن تعود إلى المنزل عبر التلال المنخفضة إلا في المساء، ومعها شنطة التسوق والشبكة المليئة بالخبز، وفي بعض الليالي كانت تسمع أصواتًا تحوم بالبيت، صفارات خافتة، لكنها لم تفتح. جاء الصيف، حارًّا، لانهائيًّا، لامعًا، ثقيلًا، كثيرًا ما تمطر بغزارة، وهكذا بدأت الإجازة الكبيرة. حانت فرصة «متّى». بقيت «أنّاماري» بجانبه دائمًا، أي بالقرب من الطريق، يراها كل من يمر بالمحطة. كان ينتظر وينتظر. يلعب مع البنت، يحكي لها حكايات، كل حكايات «الأخوين جريم»، كل حكايات «آندرسن»، «ألف ليلة وليلة»، بل راح يخترع الحكايات، بيأس كان يفعل كل شيء حتى يقيد البنت إلى جانبه، على الطريق، حيثما كان يريد لها أن تكون. بقيت الفتاة بجانبه، سعيدة بالحكايات والخرافات. أرسل أصحاب السيارات نظرات متعجبة إلى الاثنين، أو متأثرين بالمنظر الجميل للأب وابنته، كانوا يهدون البنت شوكولاتة، يثرثرون معها، و«متّى» لهم بالمرصاد. هل كان هذا الرجل الطويل الضخم هو القاتل الشهواني؟ سيارته من «جراوبوندن». أم ذلك الطويل النحيل الذي يتحدث الآن مع الفتاة؟ مالك مصنع حلويات في «ديسنتيس»، كما عرف من خلال تحرياته.

ـ الزيت تمام؟ تفضل. سأسكب نصف لتر آخر. ١٠ , ٢٣.
أتمنى للسيد رحلة سعيدة.

راح ينتظر وينتظر. أحبته «أنَّاماري»، كانت راضية معه. لم يكن يفكر سوى في ظهور القاتل. بالنسبة له لم يكن هناك سوى الإيمان بظهوره، لا شيء سوى هذا الأمل، هذا الشوق وحده، هذا التحقق. كان يتخيل مجيء الرجل، ضخمًا، ثقيل الحركة، طفوليًّا، يتحرق إلى مشاعر الألفة، كما يتحرق إلى شهوة القتل، كيف سيظهر مرة تلو الأخرى عند محطة الوقود، لطيفًا، مبتسمًا ببلاهة، مرتديًا ملابس احتفالية، موظفًا متقاعدًا في السكة الحديد مثلًا أو موظفًا في الجمارك انتهت فترة خدمته؛ كيف تستجيب الطفلة للإغراء، تدريجيًّا، كيف سيتتبع الاثنين في الغابة خلف المحطة، منكمشًا على ذاته، خافت الصوت، كيف سيتصرف بسرعة في اللحظة الحاسمة، وكيف سيصل الأمر إلى صراع وحشي بين رجلين، إلى الحسم، إلى الخلاص، وكيف سيرقد القاتل أمامه، محطمًا، مولولًا، معترفًا. ولكنه سرعان ما كان يقول لنفسه مرة أخرى إن كل ذلك مستحيل، لأنه يحرس الطفلة حراسة واضحة، وأن عليه أن يمنح الطفلة حرية أكبر إذا أراد التوصل إلى نتيجة. عندئذ كان يطلق حرية البنت، ولكنه يتتبعها سرًّا،

كان يترك المحطة وحدها، وأمامها السيارات التي كانت تطلق نفيرها في غضب. كانت البنت تقفز تجاه القرية، وهو طريق يستغرق نصف الساعة، تلعب مع الأطفال أمام بيوت الفلاحين أو على حافة الغابة، وبعد فترة قصيرة كانت تعود دومًا. كانت خجولة، معتادة على الوحدة. كما كان الأطفال الآخرون يتجنبونها. ثم لا يلبث أن يغير التكتيك مرة ثانية، مخترعًا ألعابًا جديدة، وحكايات جديدة، جاذبًا «أنَّاماري» إليه من جديد. راح ينتظر وينتظر. ثابتًا لا يحيد عما يفعله. من دون أن يقدم شرحًا أو تفسيرًا، إذ كان اهتمامه بالطفلة قد لفت انتباه «هِلر» منذ فترة. لم تصدق أبدًا أن «متَّى» وظفها في خدمته لطيبته فقط. شعرت أن لديه هدفًا، غير أنها كانت تشعر بالأمان لديه، ربما لأول مرة في حياتها، وهكذا تخلت عن أفكارها، بل ربما داعبها الأمل، من يعلم ماذا يدور في رأس امرأة مسكينة، على كل حال فإن الاهتمام الذي كان «متَّى» يوليه للطفلة اعتبرته مع مرور الوقت ميلًا وعطفًا حقيقيًّا، حتى وإن كانت شكوكها القديمة وحسها الواقعي يلحان عليها بين الحين والآخر.

قالت له ذات مرة:

ـ يا سيد «متَّى»، صحيح أن الأمر لا يعنيني، ولكن هل جاء اللواء في شرطة المقاطعة إلى هنا بسببي؟

أجاب «متَّى»:

ـ بالطبع لا، ولماذا عليه أن يفعل هذا؟

ـ الناس في القرية يتحدثون عنا.

ـ هذا شيء غير مهم.

عادت تقول:

ـ سيد «متَّى»، هل إقامتك هنا لها علاقة بـ«أنَّاماري»؟

ضحك قائلًا:

ـ كلام فارغ. إنني ببساطة أحب الطفلة، هذا هو كل شيء يا سيدة «هِلر».

ـ أنت طيب معي ومع «أنَّاماري»، لو أعرف السبب!

ثم انتهت الإجازة الكبيرة، وحل الخريف، الطبيعة صارخة، لا يمكن تجاهلها بألوانها الحمراء والصفراء، وكأن الإنسان يرى كل شيء تحت عدسة هائلة الضخامة. استولى على «متَّى» شعور بأن فرصة عظيمة فاتته، لكنه ظل ينتظر مع ذلك. بجلد وصبر عنيد. كانت الطفلة تذهب إلى المدرسة سيرًا على الأقدام، كان في الغالب يذهب لاستقبالها ظهرًا ومساءً، ويحضرها بسيارته إلى المنزل. خطته كانت كل يوم تغدو أكثر سخافة واستحالة، فرص النجاح تقل كل

يوم، كان يعلم ذلك تمامًا؛ فكم من مرة مر القاتل بمحطة الوقود، راح يفكر، ربما يوميًّا، بالتأكيد أسبوعيًّا، على الرغم من ذلك لم يحدث شيء، وما زال يتلمس طريقه في الظلام، ما زال يعوزه مؤشر، ليس لديه حتى خيط يؤدي إلى اشتباه، ليس سوى أصحاب السيارات، يأتون ويذهبون، حتى الآن يثرثرون مع البنت، على نحو غير مؤذٍ، بالصدفة، من دون إلحاح. مَن منهم كان الشخص الذي يبحث عنه؟ وهل كان أحدهم؟ ربما لم ينجح في مسعاه لا لشيء إلا لأن عديدين يعرفون مهنته القديمة؛ لم يكن يستطيع تجنب ذلك، كما لم يحسب حساب ذلك. لكنه واصل، انتظر وانتظر. لم يكن في استطاعته الرجوع إلى الوراء. الصبر هو الطريقة الوحيدة، حتى لو كانت تضني أعصابه، حتى وإن كان يخشى في بعض الأحيان أن يفقد صوابه، أو أنه يكون على وشك حزم أمتعته والرحيل، كأنه يهرب، وليكن إلى الأردن. كانت تمر عليه ساعات وأيام يصبح فيها لامباليًا، خامل المشاعر، متهكمًا، يترك الأمور تسير سيرها المعتاد، يجلس على الدكة أمام المحطة، يفرغ في جوفه كأس «شنابس» بعد الأخرى، محملقًا أمامه، ملقيًا أعقاب السجائر على الأرض. ثم يستجمع قواه وينهض، غير أنه يعود ويغرق أكثر فأكثر في حالته اللامبالية، يقضي الأيام غافيًا، والأسابيع في

الانتظار العبثي المتوحش. ضائعًا ومعذبًا ويائسًا، ومع ذلك مفعمًا بالأمل. ذات يوم كان يجلس هناك، غير حليق، متعبًا، وبقع الزيت تملأ ملابسه، ثم هب مفزوعًا. فجأة أدرك أن «أَنّاماري» لم تعد من المدرسة بعد. انطلق سيرًا على الأقدام. الشارع المترب غير المسفلت كان يبدأ خلف المنزل في الصعود الخفيف، ثم يهبط مارًّا بسهل يابس، ثم يعبر الغابة، من حافة الغابة كان بإمكان السائر أن يرى القرية من بعيد، بيوت قديمة متجمعة حول كنيسة، دخان أزرق فوق المداخن. من هناك أيضًا كان يمكن إلقاء نظرة على الطريق الذي ينبغي على «أَنّاماري» أن تأتي منه، ولكن لم يكن لها أي أثر. التفت «متَّى» إلى الغابة مجددًا، متوترًا فجأة، يقظ الحواس؛ أشجار تنوب قصيرة، شجيرات، فوق الأرضية أوراق الشجر حمراء وبنية اللون تصدر عنها خشخشة، الطائر النقَّار يدق من مكان ما في الخلفية حيث تسمو أشجار تنوب عالية ناحية السماء، ومن بينها كانت الشمس تخترق طريقها بأشعة مائلة. ترك «متَّى» الدرب، حشر نفسه بين الأشواك وعروق الشجر النافرة، الأغصان تضربه في وجهه. وصل إلى بقعة خالية من الأشجار. نظر حوله متعجبًا، لم يلاحظ وجودها من قبل أبدًا. من الجانب الآخر من الغابة كان ينتهي طريق واسع، لا بد أن الغرض منه نقل المخلفات

من القرية إلى هنا، إذ إن جبلًا من الرماد تكوم في البقعة الخالية من الشجر. على جانبي الطريق كانت هناك علب الأغذية المحفوظة، وأسلاك صدئة وأشياء أخرى، نفايات عديدة كانت تهبط في اتجاه جدول صغير يصدر خريرًا أثناء سيره وسط البقعة. في تلك اللحظة عثر «متَّى» على البنت. كانت تجلس على ضفة الغدير الصغير الفضي، بجانبها الدمية وشنطة المدرسة. صاح «متَّى»:

ـ «أَنَاماري»!

ـ حاضر، أنا آتية.

هكذا أجابت البنت، غير أنها ظلت جالسة.

تسلق «متَّى» كومة القمامة بحذر، ثم بقي واقفًا إلى جانب البنت. سألها:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

ـ أنتظر.

ـ من يا ترى؟

ـ الساحر.

لم يكن في رأس البنت سوى الحكايات الخرافية، قريبًا ستنتظر ساحرة طيبة، ثم ساحرًا! كأنها تتهكم على انتظاره

هو. استولى عليه اليأس من جديد. إدراك عدم جدوى ما يفعله، والمعرفة المُشلة، على الرغم من كل ذلك يتحتم عليه الانتظار، لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا آخر سوى الانتظار فالانتظار ثم الانتظار.

قال غير مكترث:

ـ طيب، تعالي.

وأمسك بيد الطفلة عائدًا عبر الغابة، ثم جلس على الدكة ثانيةً محملقًا أمامه؛ أظلمت السماء، وأقبل الليل، أمسى لامباليًا بكل شيء؛ جلس هناك، راح يدخن وينتظر، بميكانيكية وعناد وقسوة، في بعض الأحيان يهمس، كأنه، من دون أن يدري، يستحضر شخصًا:

ـ تعالَ أخيرًا، تعالَ، تعالَ، تعالَ!

من دون حراك في ضوء القمر، ثم فجأة يغفو، ثم يستيقظ متجمدًا يابس الأعضاء في ضوء الفجر، فيزحف إلى الفراش.

في اليوم التالي عادت «أنّاماري» مبكرًا بعض الشيء من المدرسة. عندما دخلت، كان «متّى» قد نهض لتوه من الدكة حتى يحضرها، شنطة المدرسة على الظهر، تغني بصوت خافت وتقفز على ساق ثم على الأخرى. كانت

الدمية متدلية من يدها، وقدماها الصغيرتان تزحفان فوق الأرضية.

سألها «متَّى»:

ـ واجبات مدرسية؟

هزت «أنَّاماري» رأسها مواصلة الغناء: «على أحد الأحجار جلست ماريا»، ثم دخلت إلى البيت. تركها تسير، كان يائسًا للغاية، حائرًا، متعبًا، لم يكن يستطيع أن يحكي لها حكايات جديدة أو أن يغريها بألعاب جديدة.

ولكن عندما جاءت «هِلر» إلى البيت سألته:

ـ هل كانت «أنَّاماري» مطيعة؟

أجاب «متَّى»:

ـ لقد كانت في المدرسة.

نظرت إليه «هِلر» مندهشة:

ـ في المدرسة؟ «أنَّاماري» كانت عندها إجازة، بسبب اجتماع للمدرسين أو شيء مشابه.

انتبه «متَّى». الإحباط الذي أصابه في الأسابيع الماضية تبخر فجأة. شعر أن أمله وتوقعاته المجنونة ستتحقق قريبًا. تمالك نفسه بصعوبة. لم يوجه إلى «هِلر» أية أسئلة

أخرى. كما لم يعد يلح على البنت. ولكنه انطلق بسيارته في عصر اليوم التالي إلى القرية، ثم ترك السيارة في حارة جانبية. كان يريد مراقبة البنت في الخفاء. الساعة تقترب من الرابعة. من النوافذ تصاعد غناء، ثم صرخات، جاء التلاميذ، ملأوا المكان بالشقاوة، صراعات بين الأولاد، أحجار تتطاير، البنات تتأبط كل منهن ذراع الأخرى؛ ولكن «أنَّاماري» ليست بينهن. جاءت المعلمة، متحفظة، متفحصة «متَّى» بصرامة. عرف منها أن «أنَّاماري» لم تحضر إلى المدرسة، هل هي مريضة؟ قبل الأمس أيضًا لم تجئ إلى فترة بعد الظهر، كما أنها لم تُحضر اعتذارًا مكتوبًا. أجاب «متَّى» أن الطفلة مريضة بالفعل، ثم حياها وانطلق بسيارته كالممسوس عائدًا إلى الغابة. اندفع إلى البقعة الخالية من الأشجار، لكنه لم يجد أحدًا. منهكًا، مكتوم الأنفاس عاد إلى سيارته مجروحًا ونازفًا بسبب الأشواك، ثم انطلق إلى محطة الوقود. ولكن قبل أن يصل إلى هناك رأى البنت وهي تقفز على حافة الطريق. توقف. قال لها ببشاشة بعد أن فتح الباب:

ـ اركبي يا «أنَّاماري».

مد «متَّى» يده إلى البنت التي صعدت إلى السيارة. تعجب.

كانت راحة البنت لزجة. وعندما تأمل كفه هو لاحظ آثار شوكولاتة. فسأل البنت:

ـ من أعطاك شوكولاتة؟

أجابت «أنَّاماري»:

ـ إحدى البنات.

ـ في المدرسة؟

هزت «أنَّاماري» رأسها بنعم. لم يرد «متَّى». قاد سيارته حتى باب البيت. نزلت «أنَّاماري» من السيارة، وجلست على الدكة بجانب المحطة. راقبها من دون أن يلفت نظرها. وضعت البنت شيئًا في فمها وراحت تمضغه. سار ببطء ناحية البنت.

قال:

ـ أريني.

فتح بحذر يد البنت الصغيرة التي ضمتها قليلًا، وفيها كانت كرية مدببة الحواف ومقضومة من الشوكولاتة. سألها «متَّى»:

ـ هل عندك قطع أخرى منها؟

هزت البنت رأسها نافيةً.

أدخل المفتش يده في شنطة «أنَّاماري»، ثم أخرج المنديل، وفتحه، فوجد كرتين أخريين من الشوكولاتة.

صمتت الفتاة.

المفتش أيضًا لم ينطق. سعادة هائلة حطت عليه. جلس بجانب الطفلة على الدكة.

قال في النهاية بصوت مرتعش، وهو يمسك بعناية قطعتي الشوكولاتة الكرويتين المدببتين:

ـ «أنَّاماري»، هل أعطاهما الساحر لك؟

صمتت البنت.

ـ هو منعك من أن تخبري أحدًا عن لقائكما؟

لا إجابة.

قال لها «متَّى» بلطف:

ـ لستِ بحاجة إلى فعل ذلك، إنه ساحر لطيف. اذهبي في الغد إليه مرة ثانية.

وفجأة أشرق وجه البنت وكأن بهجة غامرة قد حلت عليها، احتضنت «متَّى» وهي في قمة السعادة، ثم ركضت صاعدة إلى غرفتها.»

٢٦

«في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي ـ كنت قد وصلت لتوي إلى المكتب ـ وضع «متّى» قطع الشوكولاتة أمامي على المكتب. من شدة انفعاله لم يكد يحييني. كان يرتدي بدلته السابقة، من دون ربطة عنق، وغير حليق. تناول سيجارًا من الصندوق الذي أزحته في اتجاهه، وبدأ ينفخ الدخان.

سألته متحيرًا:

ـ ماذا أفعل بهذه الشوكولاتة؟

ـ القنافذ.

تطلعت إليه وقد سيطرت عليَّ المفاجأة، ورحت أدير كريات الشوكولاتة الصغيرة يمينًا ويسارًا.

ـ كيف؟

ـ شيء بسيط جدًّا. أعطى القاتل «جريتلي موزر» هذه الشوكولاتة، وهي صنعت منها قنافذ. لقد فككنا رموز رسمة الطفلة.

ضحكت، ثم سألته:

ـ وكيف تريد أن تثبت ذلك؟

ـ حدث الشيء نفسه مع «أنّاماري».

هكذا أجابني، وبدأ يروي لي ما حدث.

اقتنعت على الفور. أمرت «هنتسي» و«فيلر» وأربعة رجال شرطة بالحضور، وأعطيت تعليماتي، وأطلعت وكيل النيابة على الموضوع. ثم انطلقنا. كانت محطة الوقود خاوية. أرسلت السيدة «هِلر» الطفلة إلى المدرسة ثم ذهبت إلى المصنع. سألت «متّى»:

ـ هل تعرف «هِلر» ما حدث من قبل؟

هز «متّى» رأسه نافيًا:

ـ لا تعرف أي شيء.

سرنا إلى البقعة الخالية من الأشجار. فحصناها بعناية، لكننا لم نجد شيئًا. عندئذ وزعنا أنفسنا. اقترب الظهر، فعاد «متّى» إلى محطة الوقود حتى لا يثير الشبهات. كان

اليوم ملائمًا. يوم الخميس، بعد الظهر لا تذهب الطفلة إلى المدرسة؛ وتذكرت فجأة أن «جريتلي موزر» قُتلت أيضًا في يوم خميس. كان يومًا خريفيًّا ساطعًا، حارًّا، جافًّا، طنين النحل والدبابير والحشرات الأخرى يملأ المكان، صياح طيور، ومن بعيد تردد صدى ضربات فأس. الساعة الثانية، دقات أجراس الكنيسة في القرية واضحة حتى هنا، ثم ظهرت البنت، انشقت الشجيرات أمامي عنها، بدميتها الصغيرة كانت تسير إلى الغدير الصغير، بلا مشقة، قافزة في الهواء، ثم جلست وراحت تنظر بلا توقف في اتجاه الغابة، منتبهة، متوترة، بعيون لامعة، بدا أنها تنتظر أحدًا، غير أنها لم تستطع رؤيتنا. كنا قد اختفينا خلف الأشجار والشجيرات. عندئذ عاد «متَّى» وهو يسير بحذر، استند إلى جذع شجرة بالقرب مني، مثلما فعلت أنا أيضًا. قال هامسًا:

ـ أعتقد أنه سيجيء في غضون نصف ساعة.

أومأت برأسي.

كل شيء كان منظمًا إلى أقصى حد. المدخل من الشارع الرئيسي إلى الغابة كان موضوعًا تحت الرقابة، كما أن لدينا أجهزة لاسلكي. كلنا مسلحون بالمسدسات. جلست الطفلة هناك على الغدير، بلا حراك تقريبًا، يملؤها ترقب

مندهش ومتخوف ورائع، ظهرها إلى كومة القمامة، مرة في الشمس، مرة في ظل إحدى أشجار التنوب السامقة الداكنة، لم يُسمع صوت سوى طنين الحشرات وشدو الطيور؛ وفي بعض الأحيان كانت البنت تغني بصوتها الرفيع: «على أحد الأحجار جلست ماريا»، مرة تلو الأخرى، دائمًا الكلمات نفسها والشطر نفسه، وحول الحجر ـ الذي جلست فوقه ـ تراكمت علب الأغذية المحفوظة الصدئة، صفائح وأسلاك؛ وفي بعض الأحيان، في هبات فجائية كانت الريح تسري في البقعة الخالية من الأشجار، فيتراقص ورق الشجر، يُسمع حفيفه، ثم يسود الهدوء من جديد. أخذنا ننتظر. لم يكن يهمنا في العالم كله سوى هذه الغابة التي سحرها الخريف، وفيها تجلس البنت الصغيرة بالفستان الأحمر في بقعة خالية من الأشجار. رحنا ننتظر القاتل، مصممين، جوعى إلى العدالة والحساب والعقاب. مر نصف الساعة منذ وقت طويل، بل ساعتان. رحنا ننتظر وننتظر، ها نحن ننتظر الآن كما انتظر «متّى» طيلة أسابيع وشهور. أصبحت الساعة الخامسة. الظلال الأولى، ثم عتمة الغروب، كل تلك الألوان الساطعة تمسي باهتة بلا بريق. قفزت البنت من مكانها. لم ينطق أحدنا بحرف، ولا حتى «هنتسي».

قلت بحزم:

ـ سنعود غدًا. سنبيت في «كور»، في فندق «الكبش الجبلي».

وهكذا رحنا ننتظر أيضًا في يوم الجمعة ويوم السبت. في الحقيقة كان عليَّ أن أستعين بشرطة «جراوبوندن»، لكن القضية قضيتنا. لم أكن أريد أن أشرح شيئًا، ولم أكن أرغب في تدخل أحد. في مساء الخميس اتصل بي وكيل النيابة، ثار واعترض وهدد، أطلق على كل ما نفعله هراءً، أرغى وأزبد، وطالبنا بالعودة. تشبثت بموقفي، وفرضت بقاءنا، لكنني سمحت بعودة أحد رجال الشرطة. انتظرنا وانتظرنا. في الحقيقة لم تعد البنت هي التي تهمنا الآن، ولا القاتل، بل «متَّى». لا بد أن يكون الرجل محقًّا، لا بد أن يصل إلى هدفه وإلا ستحدث مصيبة. كلنا شعرنا بذلك، حتى «هنتسي» الذي ادعى الاقتناع، وقال مساء الجمعة بحسم إن القاتل المجهول سيأتي يوم السبت، تحت يدينا البرهان الساطع، القنافذ، ثم إن الطفلة تعود دومًا، وتجلس بلا حراك في المكان نفسه، من الواضح للجميع أنها تنتظر شخصًا. وهكذا وقفنا في مخابئنا، خلف الأشجار والشجيرات، بلا حراك، طيلة ساعات، محملقين في الطفلة وفي علب الأغذية المحفوظة وفي

الأسلاك الثعبانية وفي جبل الرماد، ندخن صامتين، من دون أن نتبادل كلمة، من دون أن نتحرك، ومرارًا وتكرارًا نسمع: «على أحد الأحجار جلست ماريا». كان الموقف أصعب يوم الأحد. فجأة امتلأت الغابة بالمتنزهين بسبب الطقس الجميل المستمر؛ فرقة غناء مع القائد اقتحمت البقعة الخالية من الأشجار، صخب، عرق، أكمام مشمرة، ثم نهضت الفرقة فجأة. كان الدوي هائلًا:

التجول يثير اللذة في القلب، التجول

لحسن الحظ لم نكن نرتدي الزي الرسمي في مكاننا خلف الأشجار والشجيرات.

السماء تسبح بعظمة الخالق الأزلية...

لكن حالة البشر في تدهور

بعد فترة أتى عاشقان، تصرفا بلا خجل على الرغم من وجود الطفلة التي جلست هناك ببساطة، بصبر لا يُعقل، وتوقع لا يُفهم، حتى الآن طيلة العصر في أربعة أيام متعاقبة. انتظرنا، وانتظرنا. في تلك الأثناء كان رجال الشرطة الثلاثة قد رجعوا إلى المقر أيضًا، ومعهم اللاسلكي. كنا أربعة فحسب، «متَّى» وأنا و«هنتسي» و«فيلر». كان تصرفنا في الحقيقة غير مسؤول، ولكن إذا حسبنا الأمر بدقة، فإن

ثلاث عصريات فقط من التي انتظرنا فيها كان من الممكن أن يحدث فيها شيء، فيوم الأحد كانت المنطقة بالنسبة للقاتل خطيرة للغاية؛ «هنتسي» كان محقًّا في هذه النقطة، وهكذا انتظرنا أيضًا يوم الاثنين. صباح يوم الثلاثاء سافر «هنتسي» عائدًا، إذ كان لا بد أن يراقب أحد سير الأشغال في الإدارة بـ«كازيرنن-شتراسه». عند سفره كان «هنتسي» لا يزال مقتنعًا بنجاحنا. رحنا ننتظر وننتظر وننتظر، ظللنا متربصين ومتربصين بالقاتل، كلٌّ مستقل عن الآخر، إذ إن عددنا كان أقل من أن يسمح لنا بعمل تنظيم حقيقي. اتخذ «فيلر» مكانه بالقرب من طريق الغابة خلف إحدى الشجيرات، حيث كان يرقد في الظلال ويغفو في قيظ الخريف الصيفي، وذات مرة ارتفع شخيره عاليًا حتى إن الرياح حملته عبر البقعة الخالية من الشجر. كان ذلك يوم الأربعاء. أما «متَّى» فكان يقف بجوار البقعة الخالية من الشجر حيث يستطيع أن يراقب محطة الوقود، وأنا كنت أراقب مسرح الأحداث من الجانب الآخر، مقابله. وهكذا ظللنا نتربص بالقاتل ونتوقع مجيئه، «عملاق القنافذ»، تسري في أبداننا رعدة مع مجيء أي سيارة نسمعها آتية من الطريق الزراعي، وبيننا الطفلة التي كانت تجلس عصر كل يوم في البقعة الخالية من الشجر عند الغدير الصغير، وتغني: «على أحد الأحجار جلست ماريا»، بعناد تفعل

ذلك، سارحة بأفكار لا يمكن إدراكها؛ بدأنا ننفر منها، نكرهها. في بعض الأحيان كانت تتغيب طويلًا، تهيم على وجهها مع دميتها بالقرب من القرية، كانت تبتعد قليلًا، إذ إنها كانت تزوغ من المدرسة، وهو ما لم يكن يمر بسهولة وما استدعى حديثًا مني مع المعلمة وحدها لتجنب قيام إدارة المدرسة بالسؤال والبحث. أشرت إلى الموضوع بحذر، أظهرت لها هويتي، وحصلت على موافقة بعد تردد. بعد ذلك وجدنا الطفلة تدور حول الغابة، فتتبعناها بالمنظار المكبر، غير أنها كانت تعود دومًا إلى البقعة الخالية من الشجر، باستثناء يوم الخميس حيث بقيت بالقرب من محطة الوقود وهو ما أصابنا باليأس. وهكذا تحتم علينا ـ شئنا أم أبينا ـ أن نعقد الآمال على يوم الجمعة. كان عليَّ الآن أن أقرر، إذ إن «متَّى» أصابه الخرس منذ فترة، كان يقف خلف شجرته عندما تقافزت البنت في اليوم التالي مرة أخرى، مرتدية فستانها الأحمر ومعها دميتها، ثم جلست كما في الأيام السابقة. الطقس الخريفي الرائع مستمر منذ عدة أيام، ما زال قويًا، ملونًا، مفعمًا بالحضور، يتباهى بالقوة قبل السقوط. لم يتحمل وكيل النيابة أكثر من نصف ساعة. كان قد جاء حوالي الخامسة مساء في السيارة مع «هنتسي»، ظهر على غير توقع، وجدناه فجأة أمامنا. خطا ناحيتي، أنا الذي أقف

هناك منذ الساعة الواحدة ظهرًا، مرتكزًا بالتناوب على إحدى القدمين، ونظري مُسمَّر على البنت في الناحية الأخرى، وقد احمر وجهي غضبًا، وصوت البنت يصلنا مع الريح: «على أحد الأحجار جلست ماريا»؛ منذ فترة طويلة لم أعد أطيق سماع الأغنية، ولم أعد أطيق رؤية البنت أو وجهها البشع ذي الثغرات بين الأسنان، الضفائر الرفيعة، الفستان القصير الخالي من الذوق. بدت البنت في عينيَّ مقززة، فحسب، وضيعة، سوقية، غبية، كان بإمكاني أن أخنقها، أقتلها، أمزقها إربًا إربًا، فقط حتى لا أسمع الأغنية السخيفة ـ «على أحد الأحجار جلست ماريا» ـ مرة أخرى. الأمر يصيب بالجنون. كل شيء كان هناك، كما كان دومًا، رتيبًا، بائسًا، لا معنى له، لم يتغير شيء سوى التراكم الضخم لورق الأشجار المتساقط على نحو متزايد، وربما تزايدت أيضًا هبات الريح، وأشعة الشمس الذهبية كانت تزداد تألقًا فوق كومة القمامة الغبية. لم يعد بالإمكان التحمل، ثم فجأة بدأ وكيل النيابة يخطو بقدمه الثقيلة، كأنه قام بفعل تحريري، اندفع وسط الشجيرات، ومشى مباشرة إلى الطفلة، غير عابئ بأن حذاءه انغرس في الرماد. عندما رأيناه يمشي في اتجاه البنت، انطلقنا نحن أيضًا؛ لا بد من أن ننهي الأمر الآن.

ـ من تنتظرين؟

هكذا صرخ وكيل النيابة في وجه البنت، التي حملقت فيه مرعوبة من مكانها فوق الحجر، متأبطةً دميتها.

ـ من تنتظرين؟ ألا تريدين أن تجيبي أيتها الغبية؟

عندئذ كنا قد وصلنا كلنا إلى البنت، طوقناها، فحملقت فينا ووجهها يطفح نفورًا وذعرًا وعدم قدرة على الفهم.

قلت لها وصوتي يرتعش خنقًا:

ـ «أنَّاماري» لقد حصلت على شوكولاتة قبل أسبوع. بالتأكيد تتذكرين جيدًا، شوكولاتة في شكل قنافذ صغيرة. هل أعطاك هذه الشوكولاتة رجل يرتدي ملابس سوداء؟

لم تُجب البنت، نظرت إليَّ فقط بعينين دامعتين.

في تلك اللحظة ركع «متَّى» أمام الطفلة، ووضع ذراعيه على كتفيها.

قال شارحًا لها:

ـ اسمعي يا «أنَّاماري»، لا بد أن تصفي لنا بالضبط منظر هذا الرجل.

أكمل كلامه بنبرة مؤثرة، فكل شيء يتوقف على ما سيحدث الآن:

ـ أنا كنت أعرف بنتًا، كانت ترتدي مثلك فستانًا أحمر، أعطاها رجل طويل يرتدي ملابس سوداء شوكولاتة أيضًا. نفس الكريات المدببة التي أكلتها. وبعد ذلك مشت البنت مع الرجل الطويل إلى الغابة، وبعد ذلك قتل الرجل الطويل البنت بسكينة.

ثم صمت. لا تريد البنت أن تتكلم، حملقت فيه صامتة، وعيناها على أقصى اتساع.

صرخ «متَّى»:

ـ «أنَاماري»، لا بد أن تقولي لي الحقيقة. كل ما أريده هو ألا يحدث لك أي شر.

أجابت البنت بصوت خافت:

ـ أنت تكذب. أنت تكذب.

في تلك اللحظة فقد وكيل النيابة صبره للمرة الثانية. صرخ ممسكًا البنت من ذراعها وهازًّا إياها:

ـ أيتها الغبية. هل تقولين الآن ما تعرفين؟

ونحن صرخنا معه، من دون أي معنى، لأننا ببساطة فقدنا أعصابنا، وهززنا البنت أيضًا، وبدأت أيدينا تتجه إليها، رحنا نضرب جسد البنت الصغير الذي تمدد بين المعلبات

والرماد وأوراق الشجر الحمراء، كنا نضربها صارخين في عنف ووحشية وغضب.

تركتنا البنت نفرغ شحنة غضبنا عليها من دون أن تنطق بكلمة، لفترة بدت لنا أبديةً، وإن كان كل شيء لم يستغرق بالتأكيد سوى ثوانٍ معدودة، وفجأة صرخت بصوت مخيف ووحشي حتى إننا تجمدنا:

ـ أنت تكذب، أنت تكذب، أنت تكذب!

تركناها تعدو شاعرين بالذعر، بعد أن أعادتنا صرخاتها إلى رشدنا، وبعد أن امتلأنا رعبًا وخجلًا بسبب ما فعلناه.

قلت لاهث الأنفاس:

ـ نحن حيوانات، حيوانات.

جرت الطفلة عبر البقعة الخالية من الشجر ثم بموازاة حافة الغابة. سمعناها تصرخ من جديد:

ـ أنت تكذب، أنت تكذب، أنت تكذب!

كانت تصرخ على نحو مريع حتى إننا اعتقدنا أنها فقدت صوابها، لكنها جرت على الفور إلى أحضان «هِلر» التي ظهرت في تلك اللحظة ـ لكي يكتمل النحس ـ في تلك البقعة من الغابة. ربما كانت تنقصنا هي أيضًا! كانت

تعرف كل شيء، لا بد أن المعلمة ثرثرت عندما مرت السيدة على المدرسة؛ كنت أعلم ذلك من دون حاجة إلى السؤال. والآن، ها هي المرأة المنحوسة تقف هناك مع طفلتها التي اعتصرت خصر أمها وهي تبكي وتنهنه، محملقةً فينا بالنظرة نفسها التي سددتها الابنة لنا من قبل. بالطبع كانت تعرف كل واحد منا، «فيلر» و«هنتسي»، وللأسف أيضًا وكيل النيابة. كان الموقف محرجًا وغريبًا، سيطر الارتباك علينا كلنا، وأحسسنا بأننا أصبحنا موضع استهزاء. الموضوع برمته لم يكن سوى مسرحية كوميدية بائسة وسخيفة.

ـ يكذب، يكذب، يكذب.

استمرت البنت التي لم تهدأ بعد في الصراخ:

ـ يكذب، يكذب، يكذب.

عندئذ سار «متَّى» إلى الاثنين، منكسرًا، غير واثق من نفسه. قال بأدب، بل بانكسار:

ـ السيدة «هِلر»...

كان سلوكه لا معنى له، فالآن لم يكن أمامنا سوى شيء واحد، إنهاء الأمر برمته، الإنهاء، الإنهاء إلى الأبد، إغلاق الملف، التخلص أخيرًا من كل هذه التركيبة المعقدة، سواء

كان القاتل موجودًا أم لا.

ـ السيدة «هِلر»، لقد تأكدت من أن «أنَّاماري» حصلت على شوكولاتة من شخص غريب. وأشتبه في أن هذا الشخص هو نفسه الذي أغرى بنتًا قبل عدة أسابيع بالشوكولاتة إلى الغابة ثم قتلها.

كان يتحدث بكلمات دقيقة وبلهجة رسمية تمامًا كادت تجعلني أنفجر مقهقهًا. بهدوء نظرت المرأة إليه في وجهه. ثم تحدثت هي أيضًا بأدب وبلهجة رسمية مثل «متَّى». سألته بصوت خافت:

ـ السيد الدكتور «متَّى»، هل أخذت «أنَّاماري» وأخذتني إلى محطتك للعثور على هذا الشخص؟

أجاب المفتش:

ـ لم يكن هناك طريق آخر يا سيدة «هِلر».

ردت المرأة بهدوء، من دون أن تتغير ملامح وجهها:

ـ أنت كلب حقير.

ثم أمسكت بيد ابنتها وسارت في الغابة في اتجاه محطة الوقود.»

٢٧

«كنا نقف في الغابة، عند البقعة الخالية من الشجر، في منطقة شبه ظليلة، محاطين بالعلب القديمة والأسلاك الثعبانية. الأقدام غائصة في الرماد وأوراق الشجر. انتهى كل شيء. العملية كلها بلا فائدة. مضحكة. مصيبة، كارثة. «متَّى» هو الوحيد الذي تمالك نفسه. بدا لنا بـ«العفريتة» الزرقاء متخشبًا ومهيبًا. لم أصدق عيني ولا أذني، لقد أحنى قامته انحناءة بسيطة أمام وكيل النيابة وقال:

ـ السيد الدكتور «بوركهارد»، علينا الآن أن نواصل الانتظار. ليس هناك شيء آخر يمكن عمله. الانتظار، فالانتظار، ثم الانتظار. سيكون كافيًا إذا وفرت لي ستة رجال آخرين وجهاز اللاسلكي.

مذعورًا راح وكيل النيابة يتفحص مرؤوسي السابق. كان ينتظر كل شيء إلا هذا. كان عازمًا على أن يقول لنا جميعًا

رأيه؛ غير أنه الآن بلع ريقه عدة مرات، ومسح بيده على جبهته، وفجأة استدار، ثم سار مع «هنتسي» فوق أوراق الشجر في الغابة واختفى. بعد إشارة مني ذهب «فيلر» أيضًا.

«متَّى» وأنا أصبحنا وحدنا.

صرخت في وجهه، عازمًا على أن أعيد الرجل أخيرًا إلى صوابه، غاضبًا من نفسي لأنني دعمت هذا الهراء وسمحت به.

ـ أصغِ الآن إلى ما أقوله! العملية فشلت، لا بد من الاعتراف بذلك، لقد انتظرنا أكثر من أسبوع حتى الآن، ولم يأتِ أحد.

لم يُجب «متَّى» بكلمة. تلفت حوله، منتبهًا، مترصدًا. ثم سار إلى حافة الغابة، وعَبَرَ البقعة الخالية من الأشجار ثم عاد إليَّ. لم أزل أقف فوق كومة القمامة، والرماد القديم يصل حتى كاحلي. قال «متَّى»:

ـ البنت كانت تنتظره.

هززت رأسي وعارضته:

ـ البنت جاءت إلى هنا حتى تكون وحدها، حتى تجلس عند الغدير، حتى تحلم مع دميتها وتغني «على أحد

الأحجار جلست ماريا». لقد كان مجرد تأويل منا أنها تنتظر أحدًا هنا.

رد عليّ بعناد، وبقناعة ما زالت راسخة:

ـ حصلت «أنّاماري» على القنافذ.

ـ «أنّاماري» حصلت على شوكولاتة من شخص ما، هذا صحيح. مَن لا يهدي طفلًا شوكولاتة؟ أن تكون هذه الشوكولاتة المحشوة هي القنافذ في رسمة الطفلة، فهذا أيضًا تأويل منك يا «متّى»، لا شيء يبرهن على أن ذلك يتطابق أيضًا مع الحقيقة.

مرة أخرى صمت «متّى». سار من جديد إلى حافة الغابة، وعَبَرَ البقعة الخالية من الشجر ثانيةً، بحث في مكان ما تجمعت فيه أوراق الشجر، بحث عن شيء ما، ثم توقف وعاد إليَّ، وقال:

ـ هذا مكان مناسب لارتكاب جريمة قتل، هذا شيء يشعر الإنسان به، سأواصل الانتظار.

أجبته وقد ملأني الفزع فجأة، واستولى عليَّ الاشمئزاز والبرد والتعب:

ـ هراء!

قال «متَّى»:

ـ سيجيء إلى هنا.

صرخت في وجهه:

ـ كلام فارغ، حماقة، غباء!

لم يبدُ عليه أنه يصغي. ثم قال:

ـ فلنعد إلى محطة الوقود.

كنت سعيدًا بمغادرة مكان الكارثة الملعون أخيرًا. كانت الشمس منخفضة للغاية، الظلال عملاقة الطول، بقية الوادي كان يتوهج باللون الذهبي الساطع، والسماء فوقه ذات زرقة صافية؛ ولكنني كرهت كل شيء، شعرت بنفسي منفيًّا في كارت بريدي مبتذل إلى أقصى درجة. ثم ظهر الطريق السريع، السيارات العابرة، سيارات مفتوحة وفيها بشر يرتدون ملابس ملونة. ظهر الثراء أمامنا فجأة، وكأن الريح حملته وقذفت به في وجوهنا. كان الأمر عبثيًّا. وصلنا إلى محطة الوقود. بجانب مضخات الوقود كان «فيلر» ينتظر في سيارته، كاد النعاس يتغلب عليه من جديد. على الأرجوحة كانت تجلس «أنَّاماري»، تدندن ثانيةً بصوتها الصفيحي، وآثار البكاء ما زالت تبدو عليها: «على أحد الأحجار جلست ماريا». كان

رجل يقف مستندًا على إطار الباب، ربما أحد العمال في مصنع الطوب، بقميص مفتوح وصدر مشعر، في فمه سيجارة، مرسلًا نظرات شماتة. لم يلتفت «متَّى» إليه. دخل إلى الغرفة الصغيرة، إلى المائدة حيث تناولنا طعامنا من قبل؛ وأنا جررت خطواتي وراءه. صب لنفسه كأسًا من «الشنابس»، كأسًا وراء الأخرى. لم أستطع أن أشرب شيئًا، إلى هذا الحد كنت مشمئزًّا من كل شيء. لم أرَ «هِلر».

قال «متَّى»:

ـ سيكون صعبًا ما عليَّ أن أفعله الآن. ولكن البقعة الخالية من الشجر ليست بعيدة، أم أنك تعتقد أنه من الأفضل أن أنتظر هنا، في محطة الوقود؟

لم أجب بحرف. قطع «متَّى» الغرفة جيئة وذهابًا، راح يشرب من دون أن يعبأ بصمتي، ثم قال:

ـ السخيف في الأمر أن «هِلر» و«أنَّاماري» تعرفان الآن. ولكن سيعود كل شيء إلى مجراه.

من الخارج سمعت ضجيج الطريق، وصوت الطفلة: «على أحد الأحجار جلست ماريا». قلت له:

ـ سأنصرف الآن يا «متَّى».

واصل الشراب، ولم يتطلع إليَّ بنظرة. ثم قال بحسم:

ـ سأنتظر أحيانًا هنا، وأحيانًا في الغابة.

قلت له مغادرًا الغرفة:

ـ وداعًا.

في طريقي إلى الخارج مررت بالرجل والبنت، لوحت لـ«فيلر» الذي فزع من إغفاءته ثم جاء بسيارته إليَّ وفتح الباب. قلت آمرًا:

ـ إلى «كازيرنن-شتراسه».»

٢٨

واصل اللواء السابق في شرطة المقاطعة حديثه: «هذه هي الحكاية، أو على الأقل الجزء المتعلق بـ«متَّى المسكين»».

(هذا هو بالتأكيد الموضع الذي يتحتم عليَّ فيه أن أذكر أن العجوز وأنا كنا بالطبع قد أنهينا رحلتنا من «كور» إلى «زيورخ» منذ مدة طويلة، وأننا كنا نجلس الآن في مطعم «كرونن-هاله» الذي ذكره اللواء في تقريره وامتدحه كثيرًا، وأن «إيما» بالطبع كانت تقوم بخدمتنا، وأننا جلسنا تحت لوحة «جوبلر» التي حلت محل لوحة «ميرو». كل شيء وافق عادات العجوز. من ناحية أخرى كنا قد انتهينا من تناول الطعام ـ «بوليتو ميلانيزه» من عربة الطعام، كان ذلك أيضًا أحد تقاليده، ولِمَ لا أشاركه؟ ـ نعم، كانت الساعة حوالي الرابعة،

وبعد «قهوة بارتاجاس» ـ هكذا كان اللواء يطلق على عشقه، أي تدخين سيجار كوبي مع فنجان إسبرسو ـ قدم لي مع كأس نبيذ «ريزيرف دو باترون» المعتق طبق حلو آخر. لا بد أيضًا أن أضيف، من الناحية التقنية، وحبًّا لأهل المهنة وللأمانة الأدبية، أنني بالطبع لم أكتب دومًا ما قاله العجوز الحكَّاء كما رواه، لا أقصد أننا كنا نتكلم طبعًا باللهجة السويسرية، بل أقصد تلك الأجزاء من حكايته التي حكاها لي بموضوعية، ولم يقصها من وجهة نظره لأنه عايشها، مثل المشهد الذي قطع فيه «متَّى» وعدًا على نفسه. في هذه المقاطع كان لا بد من التدخل والتشكيل وإعادة الصياغة، مع العلم بأنني بذلت قصارى جهدي حتى لا أزيف الأحداث، كل ما فعلته هو أنني قمت بالتعامل مع المادة التي قدمها لي العجوز وفق قواعد معينة للكتابة حتى تكون مهيأة للنشر.)

واصل كلامه ثانيةً:

«طبعًا، عدت إلى «متَّى» بضع مرات، وقناعتي كانت تزداد يومًا بعد يوم أنه مخطئ في اعتقاده ببراءة البائع المتجول، لأن الشهور، بل السنوات التالية لم تشهد جريمة قتل جديدة. لست بحاجة إلى الإسهاب. حالة الرجل تدهورت. أصبح سكيرًا أبله. لم يكن من الممكن مساعدته

بشيء أو تغيير شيء. ساء الوضع للغاية، وكان الرجال يتسللون ويصفِّرون في الليالي حول محطة الوقود، ولكن ليس من دون جدوى كالسابق. شنت شرطة «جراوبوندن» عددًا من الحملات، وتحتم عليَّ إخبار زميلي في «كور» بالحقيقة، وهكذا غضت الشرطة البصر عنه، أو تجاهلته تمامًا. كانوا دومًا في «كور» أكثر عقلانية منا. وهكذا سار كل شيء سيره الوخيم، والعاقبة رأيتها بنفسك أثناء رحلتنا. الأمر محزن، خاصة لأن الصغيرة، «أنَّاماري»، لم تتحسن حالتها. ربما لأن منظمات مختلفة سعت كلها في الوقت نفسه كي تنقذها. اعتنوا بالطفلة، لكنها كانت تهرب منهم دومًا وترجع إلى محطة الوقود حيث أقامت «هِلر» قبل عامين البار البائس، يعلم الشيطان كيف احتالت للحصول على ترخيص. على كلٍّ فإن ذلك قضى على البقية الباقية من الفتاة. كانت تشاركهم فيما يفعلونه. بكل معنى الكلمة. فلأكن واضحًا: لقد أتمت قبل أربعة أشهر عامًا في سجن النساء في «هندلبنك». ولكن البنت لم تتعلم شيئًا من ذلك. كان بإمكانك أن تتأكد بنفسك. فلنتحدث عن شيء آخر. ولكنك بالتأكيد تسأل نفسك منذ فترة ما علاقة قصتي بالنقد الذي وجهته لمحاضرتك، ولماذا أُطلق على «متَّى» وصف «عبقري». سؤالك مفهوم. ستعترض وتقول إن خاطرة غير مألوفة ليست بالضرورة فكرة صائبة، ناهيك

عن أن تكون عبقرية. هذا صحيح أيضًا. يمكنني أيضًا أن أتصور ما تتفتق عنه الآن قريحتك الأدبية. كل ما نحن بحاجة إليه ـ هكذا ستقول بدهاء ـ هو أن يكون «متَّى» محقًّا في رأيه، ثم الإمساك بالقاتل، وسنحصل فورًا على أجمل رواية أو على مادة تصلح لأجمل الأفلام، فمهمة الكاتب ليست في نهاية الأمر سوى جعل الأمور مرئية عبر حيلة ما، حتى تبرق الفكرة العليا خلف الأشياء ويمكن إدراكها؛ نعم عبر حيلة كهذه، أي عبر نجاح «متَّى»، فإن المخبر المتدهورة حالته لن يصبح مثيرًا للانتباه فحسب، بل سيتحول إلى شخصية شبه أسطورية، نسخة حديثة من النبي إبراهيم، إنسان يمنح الأمل والإيمان. ومن حكاية لا معنى لها ـ أعني أن يعتقد أحد ببراءة مذنب، ويقتفي آثار قاتل ليس له وجود ـ سنحصل على حكاية ذات مغزى. البائع المذنب يغدو بريئًا في ملكوت الأدب السامي، أما القاتل غير الموجود فيصبح موجودًا، ومن خلال حادثة تنحو إلى السخرية من العقل البشري ومن قوة الإيمان البشري، تمسي لدينا حادثة تمجد هذه القوى. هل كانت الوقائع ستأخذ هذا المجرى؟ هذا سيان، المهم هو أن تبدو هذه الرؤية للحكاية ممكنة أيضًا. هكذا أتخيل بالتقريب أفكارك، بل ويمكنني أن أتنبأ أن الحكاية بهذا الشكل ستكون بناءة وإيجابية، وأنها لذلك لا بد أن تظهر قريبًا،

سواء في شكل رواية أو فيلم. ستحكي أنت كل شيء، كما حاولت أنا أن أفعل، ولكن على نحو أفضل بالطبع. فهذه مهنتك في نهاية الأمر، وفي النهاية فقط يأتي القاتل بالفعل، ويتحقق الأمل، وينتصر الإيمان. وهكذا يمكن للعالم المسيحي أن يقبل الحكاية. بالإضافة إلى ذلك من الممكن تلطيف الحكاية أكثر. أقترح مثلًا ـ بمجرد أن يكتشف «متَّى» كريات الشوكولاتة، ولأنه يعرف الخطر الذي يحوم حول «أنَّاماري» ـ أن يتخلى على الفور عن خطة استخدام الطفلة كطُعم، إما استجابةً لمشاعر إنسانية ناضجة، أو لمشاعر الحب الأبوي للطفلة، ولهذا من الممكن أن ينقل «أنَّاماري» وأمها إلى مكان آمن، ويضع قرب الغدير دمية ضخمة. في رهبة واحتفالية سيخطو القاتل من الغابة ناحية الطفلة المزعومة، في شمس الغروب، يتفجر ساحر «أنَّاماري» شبقًا، أخيرًا يستطيع أن يُعمِلَ سكينه في جسد طفلة من جديد؛ وعندما يدرك أنه وقع في فخ شيطاني يعدو مسرعًا، يتفجر جنونه، وفي النهاية يحدث ربما صراع مع «متَّى» ورجال الشرطة ـ عليك أن تغفر لي خيالي ـ حديث مؤثر بين المفتش الجريح والطفلة، لمدة قصيرة، بضع جمل مبتورة، ولِمَ لا تهرب البنت من أمها لمقابلة الساحر المحبوب، وتسرع الخطى في اتجاه حظها الكارثي، وهكذا، وبعد كل هذه الويلات، ينبثق شعاع نور مفعم

بالإنسانية الوديعة، والشعرية الخيالية المستحيلة؛ أو ـ وهو ما يبدو أكثر احتمالًا ـ سوف تختلق شيئًا آخر تمامًا؛ أنا أعرفك قليلًا، وإن كنت ـ بصراحة ـ أحب «ماكس فريش» أكثر؛ العبثية تحديدًا هي التي تثير اهتمامك، أن يكون هناك إنسان يؤمن ببراءة مذنب، ثم يبحث عن قاتل لا يمكن أن يكون موجودًا، كما وصفنا الموقف وصفًا صائبًا بما فيه الكفاية. ولكنك ستصبح أكثر بشاعة من الواقع؛ من أجل المتعة الخالصة وحتى تسخر من الشرطة سخرية كاملة: سيعثر «متَّى» على قاتل بالفعل، أحد أشخاصك الورعين غريبي الأطوار، مثلًا واعظ طيب القلب من إحدى الطوائف الدينية الصغيرة، وهو في حقيقة الأمر بالطبع بريء ولا يستطيع أن يؤذي نملة، ولهذا تحديدًا، وعبر إحدى أفكارك الشريرة سيثير كل الشبهات ضده. سيقتل «متَّى» هذا الأحمق، كل البراهين ستكون صحيحة، وبهذا سيُمتدح المخبر السعيد ويُحتفى به باعتباره عبقريًا، وسيدخل الخدمة لدينا مرة ثانية. هذا محتمل أيضًا. كما ترى، لقد كشفت أفكارك. والآن، لن تُرجع كل كلامي إلى تأثير نبيذ «ريزيرف دو باترون» المعتق ـ نحن نشرب اللتر الثاني، أعترف بذلك ـ ولكنك ستشعر أيضًا أن عليَّ أن أحكي نهاية القصة، وإن كنت سأفعل ذلك مكرهًا، فلست بحاجة إلى أن أخفي عنك أن هناك تحولًا دراميًا في

هذه الحكاية، وستخمن أن هذا التحول بائس إلى أقصى حد، بائس إلى حد أنه لا يصلح لأي رواية محترمة أو فيلم. تحول مضحك، غبي، مبتذل، لا بد من غض النظر عنه إذا أردنا أن ندوِّن القصة. ولكن، وللأمانة، لا بد من الاعتراف بأن هذا التحول يشهد لـ«متَّى»، ويسلط عليه ضوءًا يظهره على حقيقته، ويجعله عبقريًّا، يجعله إنسانًا قد حدس العوامل الحقيقية الخافية علينا إلى حد رفضه النظريات والافتراضات التي حاصرتنا، وتوغله بالقرب من تلك القوانين التي لا نستطيع في المعتاد الاقتراب منها ـ الاقتراب فحسب بالطبع ـ وهي القوانين التي تحفظ للعالم حيويته. من خلال ذلك، من خلال وجود هذا التحول المريع للقصة والذي لا يمكن للأسف الشديد توقعه ـ يمكنك أن تطلق على ذلك المصادفة ـ فإن عبقرية «متَّى» وخطته وتصرفاته تصبح عبثيةً تمامًا عندما ننظر إليها لاحقًا، بشكل مؤلم، أكثر ألمًا مما شعرنا به عندما كان الرأي السائد في «كازيرنن-شتراسه» أنه مخطئ. لا شيء أفظع من عبقري يتعثر في شيء معتوه. ولكن كل شيء يتوقف في مثل هذه الحوادث على كيفية تصرف العبقري مع هذا الشيء السخيف الذي سقط بسببه: هل يستطيع أن يتقبله أم لا. لم يستطع «متَّى» أن يتقبل ذلك. لقد أراد أن يتحقق ما توقعه. ولذلك كان عليه أن ينكر

الحقيقة وينتهي إلى العدم. وهكذا تنتهي حكايتي نهاية كئيبة للغاية، تنتهي بأكثر «الحلول» ابتذالًا. وهذا أمر قد يحدث. فالأسوأ يقع في بعض الأحيان أيضًا. نحن رجال، وعلينا أن نتوقع ذلك، وأن نتسلح لمواجهته، وأن يكون واضحًا لنا، أولًا وقبل كل شيء، أننا لن نتحطم على صخرة العبث ـ العبث الذي يظهر لنا بشكل يزداد في كل يوم وضوحًا وقوة ـ إلا إذا تواضعنا وعملنا له حسابًا في تفكيرنا، هكذا فقط سنستطيع أن نواصل حياتنا على هذه الأرض. إن عقلنا لا يضيء العالم إلا على نحو قاصر. وفي غبش المنطقة الواقعة على حدوده يتوطن كل ما هو متناقض. فلنحذر إذن من أن ننظر إلى هذه الأشباح «بحد ذاتها» كأنها تسكن خارج الروح البشرية، أو، وهو الأسوأ: حذارِ من أن نسير وراء الوهم، وأن ننظر إلى تلك الأشباح باعتبارها أخطاء يمكن تلافيها، وهو ما يمكن أن يغوينا بالحكم على العالم بالإعدام انطلاقًا من معاندته، أو أن نحاول أن نجعل العقلانية الخالية من الأخطاء هي السائدة. إن الكمال الخالي من الأخطاء سيكون أكذوبة قاتلة وعلامة على أكثر أشكال العمى فظاعة. ولكن، اغفر لي أنني أطلقت تعليقاتي هكذا وسط حكايتي الجميلة، وهو ما لا يستقيم تمامًا مع منطق الحكي السليم، أعرف ذلك، ولكن لا بد أن تسمح لرجل عجوز بأن يفكر فيما

عايشه، حتى لو كانت تلك الأفكار غير ناضجة إلى هذا الحد. مع أني من الشرطة فإنني أحاول في نهاية الأمر أن أكون إنسانًا لا ثورًا.»

٢٩

«حدث ذلك العام الماضي، وبالطبع في يوم أحد مرة أخرى. إثر مكالمة تلفونية من رجل دين كاثوليكي كان عليَّ أن أقوم بزيارة إلى مستشفى المقاطعة. كنت على وشك التقاعد، في الأيام الأخيرة من نشاطي المهني، وكان خليفتي قد بدأ العمل بالفعل، ليس «هنتسي» ـ الذي، لحسن الحظ، لم ينجح في مسعاه بالرغم من زوجته «هوتينجر» ـ بل رجل يتميز بالكفاءة والدقة، وُهبَ مشاعر إنسانية متحضرة لن تكون إلا مفيدة له في منصبه. وصلتني المكالمة في شقتي. لم أستجب للطلب إلا بعد أن عرفت أن امرأة تحتضر تريد أن تبوح لي بأمر مهم، وهو ما يحدث بين الحين والآخر. كان يومًا مشمسًا ولكن باردًا من أيام ديسمبر. كل شيء عارٍ، كئيب، سوداوي. في مثل تلك اللحظات من الممكن أن تغدو مدينتنا مدعاةً للبكاء.

أن أرى امرأة محتضرة كان عبئًا مزدوجًا. ولذلك درتُ عدة مرات متعكر المزاج إلى حد كبير حول منحوتة «آلة الهارب» لـ«هانز إيشباخر» في الحديقة، غير أنني خطوت إلى داخل المبنى في نهاية الأمر. السيدة «شروت»، العناية الطبية، القسم الخاص. كانت غرفة المريضة تطل على الحديقة. تختنق بالزهور، ورد وجلاديولس. الستائر مشدودة حتى المنتصف. أشعة شمس مائلة سقطت على الأرضية. بجانب النافذة جلس قس ضخم البنية، ذو وجه أحمر احمرارًا قانيًا ولحية رمادية غير مشذبة، وعلى السرير كانت امرأة هزيلة ترقد، عجوز، ذات تجاعيد رقيقة، الشعر خفيف وأبيض كالثلج، وديعة للغاية، وعلى ما يبدو من الجهد الفائق المبذول للعناية بها ثرية ثراء فاحشًا. بجوار السرير جهاز معقد، جهاز طبي ما موصل بخراطيم مختلفة تأتي من حافة السرير. كان على ممرضة أن تقوم بين الحين والآخر بضبط الجهاز. كانت الممرضة تدخل إلى غرفة المريضة على فترات منتظمة، بصمت وانتباه، ولذلك ـ أود أن أذكر ذلك من البداية ـ كان الحديث ينقطع بانتظام.

ألقيت التحية. تطلعت إليَّ السيدة العجوز بانتباه وهدوء لا حد لهما. كان وجهها شمعيًا، غير حقيقي، ورغم ذلك حيويًّا على نحو غريب. في يديها الصفراوين المجعدتين

كانت تمسك بكتيب صغير أسود ذي حافة مذهبة، من الواضح أنه كتاب صلوات، ولكن لم يكن من السهل أن يصدق المرء أن هذه المرأة ستموت قريبًا، بدت حيوية، وتشع طاقة لم تهن على الرغم من كل الخراطيم التي كانت تزحف من تحت حافة سريرها. ظل القس جالسًا. أشار بيده إشارة مهيبة ومرتبكة في الوقت ذاته إلى كرسي بجانب السرير.

دعاني إلى الجلوس. وعندما جلست جاء صوته العميق مجددًا من ناحية النافذة، حيث كان يجلس كخيال ضخم.

ـ احكي للسيد اللواء ما تريدين إخباره به يا سيدة «شروت».

في الحادية عشرة يجب أن أمسحك بالزيت المقدس المسحة الأخيرة.

ابتسمت السيدة «شروت». قالت على نحو جذاب إنها تتأسف من أجل المتاعب التي سببتها لي. صوتها خفيض، لكنه واضح للغاية، بل يكاد يكون مرحًا.

كذبت قائلًا إنه ليست هناك متاعب، إذ كنت مقتنعًا أن العجوز ستعلن عن تأسيس مبرّة لرجال الشرطة المعوزين أو شيء من هذا القبيل.

الحكاية التي تريد أن تقصها عليَّ هي بحد ذاتها غير

مهمة وليست ذات شأن، واصلت العجوز كلامها، واقعة تحدث ربما في كل العائلات مرة أو عدة مرات، ولهذا فقد نسيتها، ولكن الآن، يتحتم عليها، فالأبدية تقترب. تذكرت الحكاية أثناء اعترافها الأخير المسهب، بالصدفة البحتة، لأن حفيدة ابنتها الوحيدة بالمعمودية جاءت لزيارتها ومعها زهور، وكانت ترتدي فستانًا أحمر قصيرًا، والقس «بيك» انفعل للغاية وكان من رأيه أنه يجب عليها أن تقص الحكاية عليَّ، وهي لا تعرف بالفعل لماذا، لقد انتهى كل شيء، ولكن إذا كان قداسة القس يرى...

ـ احكي يا سيدة «شروت».

سمعتُ الصوت العميق يأتي من عند النافذة:

ـ احكي.

في المدينة بدأت أجراس الكنائس تقرع داعية الناس لحضور العظة، رنين مكتوم وبعيد. بدأت المسنة الثرثرة مجددًا: تريد أن تحاول الآن. منذ فترة طويلة لم تحكِ حكايات، كانت تحكي لـ«إميل» فحسب، ابنها من زوجها الأول، ولكن «إميل» مات من الجوع، لم يكن هناك ما يمكن عمله. كان سيصبح الآن في عمري أنا، أو بالأحرى في عمر السيد القس «بيك»، فبعد «إميل» مباشرة وَلدت «ماركوس»، غير أنه مات بعد ثلاثة أيام،

ولادة مبكرة، رأى نور العالم بعد ستة أشهر فقط، وكان من رأي الدكتور «هوبلر» أن هذا كان أفضل للطفل المسكين. وهكذا استمرت السيدة تحكي كلامًا مشوشًا لفترة.

قال القس محذرًا بصوت من طبقة «الباس»:

ـ احكي يا سيدة «شروت»، احكي.

جلس القس ساكنًا، لا تصدر عنه أية حركة من مقعده بجانب النافذة، فقط بين الحين والآخر يمسح بيمناه على لحيته الرمادية الشعثاء كأنه موسى النبي، ومن فمه تتصاعد موجات هادئة من رائحة الثوم الواضحة.

ـ لا بد أن نبدأ بعد قليل طقس المسحة الأخيرة!

راحت فجأة تتحدث بكبرياء، على نحو يكاد يكون أرستقراطيًّا، بل واستقامت برأسها قليلًا، وبدأت عيناها الصغيرتان في اللمعان. إنها من عائلة «شتينتسلي»، جدها لأبيها كان العقيد «شتينتسلي» الذي قام خلال الحرب الأهلية بتنفيذ الانسحاب إلى «إيشولتسمات». أختها تزوجت بالعقيد «شتوسي» من «زيورخ»، عقيد أركان حرب في الحرب العالمية الأولى، وكان صديقًا صدوقًا للجنرال «أولريش فيله»، وكان يعرف القيصر «فيلهلم» شخصيًّا، «ما زالت ذاكرتي تعي ذلك».

أجبت ضجِرًا:

ـ طبعًا، بديهي.

وقلت لنفسي: ما لي أنا والجنرال «فيله» العجوز والقيصر «فيلهلم»، هيا أيتها العجوز، أخبريني بالمؤسسة الخيرية. لو كنت أستطيع أن أدخن، سيجارًا صغيرًا «سورديك»، هذا هو الملائم الآن، أن أنفخ قليلًا من نسيم الغابة الأصلية في جو المستشفيات هذا، في هذا الهواء المعطر بالثوم. بعناد ومن دون تعب راح القس يعزف معزوفته قائلًا:

ـ احكي يا سيدة «شروت»، احكي.

واصلت السيدة العجوز كلامها، واكتسى وجهها أثناء ذلك بملامح مريرة غريبة، تكاد تكون مفعمة بالكراهية. كان يجب عليَّ أن أعرف شيئًا: أختها المتزوجة بالعقيد «شتوسي» هي التي تتحمل وزر كل شيء. أختها أكبر منها بعشر سنوات، الآن في التاسعة والتسعين من عمرها، وعما قريب ستكون قد أتمت أربعين سنة وهي أرملة، لديها فيلًا على جبل «زيورخ»، وأسهم في شركة «براون بوفري»، كما تشارك في نصف محلات «بانهوف شتراسه»؛ ثم فجأة تفجر تيار عكر، أو بالأحرى شلال عارم من الشتائم من فم العجوز المحتضرة لا أجرؤ على ذكرها هنا إطلاقًا. في الوقت نفسه استقام جسد العجوز بعض الشيء، وراح

رأسها الصغير ذو الشعر الناصع الأبيض يهتز بحيوية يمينًا ويسارًا، كأنها جُنت من البهجة والنشوة بعد اندلاع حمم غضبها. ولكنها سرعان ما هدأت مرة أخرى، لأن الممرضة، ولحسن الحظ، جاءت وقالت لها:

ـ لا، لا، سيدة «شروت»، تجنبي الانفعال، حافظي على هدوئك.

أطاعت العجوز، وصدرت عنها إشارة ضعيفة باليد بعد انصراف الممرضة. كل الزهور، قالت المرأة، ترسلها أختها، وفقط كي تغيظها، أختها تعرف حق المعرفة أنها لا تحب الزهور، وأنها تكره تبذير المال بلا طائل؛ ولكنهما لم تتشاجرا أبدًا، وليس كما أظن الآن بالتأكيد، كانتا دومًا تتعاملان في لطف وحب مع بعضهما البعض، عن سوء نية بالطبع؛ آل «شتينتسلي» كلهم يتسمون بالأدب حتى وإن كانوا لا يطيقون بعضهم البعض أبدًا، الأدب هو الطريقة الوحيدة التي يُعذب بها كلٌّ الآخر أبشع تعذيب، لحسن الحظ، لو لم يكونوا من عائلة عاشقة للنظام لكان الجحيم قد اندلع بينهم.

كرر القس تحذيره الرتيب من جديد:

ـ احكي يا سيدة «شروت»، زيت مسحة المرضى ينتظر.

والآن كنت أتمنى بدلًا من السيجار الصغير «السورديك» سيجاري الكبير «الباهيانوس».

انساب خرير الكلمات اللانهائي من جديد: لقد تزوجَت عام ١٨٩٥ «جالوزر» الحبيب، رحمه الله، طبيب حاصل على الدكتوراه من «كور». لم يلائم الأخت وعقيدها هذا الزواج، لم يكن نبيلًا بما يكفي، لقد أحست بذلك على نحو أكثر من كافٍ، وعندما توفي العقيد إثر نزلة برد، فور انتهاء الحرب العالمية الأولى، أضحت الأخت لا تُطاق. كانت حالتها تزداد سوءًا، وبدأت تمارس نوعًا من العبادة الحقيقية لزوجها العسكري.

ـ احكي يا سيدة «شروت»، احكي.

لم يتخل القس عن إصراره، من دون أن ينم صوته عن نفاد صبر، كل ما يمكن ملاحظته هو حزن شفيف بسبب هذا الكم من الخلط والتشويش الواضح، بينما كنت أنا أغالب النعاس، بل أحيانًا كنت أنتفض من غفوتي مرعوبًا.

ـ فكري في الزيت المقدس، احكي، احكي.

لم يكن بوسعنا عمل شيء، واصلت المرأة ثرثرتها على فراش الموت، بلا كلل، برغبة هائلة في القص على الرغم من صوتها العصفوري والخراطيم الممتدة

تحت غطاء السرير، تشرِّق وتغرِّب في الحديث كما يحلو لها. كنت أتوقع، هذا إذا كنت ما زلت قادرًا على التفكير، حكاية تافهة عن رجل شرطة خدوم، ثم الإعلان عن تأسيس المبرَّة بعدة آلاف من الفرنكات وذلك كي تغيظ الأخت البالغة من العمر تسعة وتسعين عامًا، هذا بالتقريب ما توقعته، ورحت أجهز شكري الحار، وأتشوق، حتى لا أقع في هوة اليأس التام، إلى إشباع رغباتي التدخينية غير الواقعية التي كبتها بحزم إلى ما بعد تناول شراب «الأبريتيف» ووجبة يوم الأحد التقليدية في مطعم «كرونن-هاله» مع زوجتي وابنتي. عندئذ ـ هكذا على نحو التقريب واصلت المسنة كلامها ـ بعد وفاة زوجها، المرحوم «جالوزر»، تزوجَت «شروت»، الذي رحمه الله أيضًا. كان تقريبًا السائق والجنايني الخاص بها، وعمومًا كان يؤدي في البيت الكبير والعتيق كل الأعمال التي يؤديها الرجال على أفضل نحو، مثل التدفئة وإصلاح الشبابيك، إلى آخره، ومع أن أختها لم تقل شيئًا عن هذه الزيجة، بل حتى حضرت العُرس بنفسها في «كور»، فإنها قد شعرت بالغضب، إنها متأكدة من ذلك، حتى وإن كانت الأخت ـ بالطبع حتى تغيظها ـ لم تجعل أحدًا يلاحظ عليها شيئًا. وهكذا غدا اسمها «السيدة شروت».

تنهدت. خارج الغرفة، في مكان ما في الممر، كانت الممرضات تنشدن، ترانيم عيد الميلاد.

أكملت العجوز كلامها بعد أن أصغت إلى بعض مقاطع الغناء:

ـ كان التوافق يسود بيننا بحق أثناء زواجي مع المرحوم. مع أن الأمر كان بالنسبة له أصعب مما اعتقدت. صغيري «ألبرت»، رحمه الله، كان في الثالثة والعشرين عندما تزوجنا ـ فهو وُلِد حوالي ١٩٠٠ ـ وأنا كنت في الخامسة والخمسين. ولكن ما حدث كان أفضل ما يمكن أن يحدث له، كان يتيمًا؛ الأم كانت... لا أريد أن أقول ماذا كانت، والأب لم يعرفه أحد، ولا حتى اسمه. أحضره زوجي الأول لما كان في السادسة عشرة، كان يواجه صعوبات في المدرسة أكثر من بقية الأطفال، الكتابة والقراءة كانت صعبة عليه منذ البداية. كان الزواج هو ببساطة أحسن الحلول، فالأرملة تصبح بسرعة مثار كلام الناس، على الرغم من أنني لم أقم مع المرحوم «ألبرت» أية علاقة، ولا حتى بعد الزواج، هذا شيء مفهوم بسبب الفارق في العمر؛ غير أن ثروتي كانت قليلة، فتحتم عليَّ الاقتصاد حتى تكفيني إيجارات بيوتي في «زيورخ» و«كور». ولكن ماذا كان باستطاعة صغيري

«ألبرت» أن يفعل بقدراته الذهنية المحدودة في خضم الكفاح القاسي في الحياة؟ كان سيضيع، والمسيحي عليه أن يقوم بواجبه. وهكذا عشنا معًا بشرف، كان يقوم بالأعمال الضرورية في المنزل والحديقة. رجل طول بعرض، يملأ العين ويثير الفخر، طويل ومتين، يرتدي دومًا ملابس لائقة واحتفالية. لم أكن أخجل من مظهره، وإن لم يكن يفتح فمه بكلمة، سوى: «نعم يا أمي، طبعًا يا أمي»، لكنه كان مطيعًا ومعتدلًا في الشراب. كان يحب الطعام، وخاصة المكرونة، كل أنواع المعجنات عمومًا. والشوكولاتة، كانت عشقه الوحيد. فيما عدا ذلك كان رجلًا مطيعًا وبقي طيلة حياته مطيعًا، ألطف وأكثر طاعة من السائق الذي تزوجته أختي بعد أربعة أعوام، رغم عقيدها، ومع أنه كان أيضًا في بداية الثلاثين.

ـ احكي يا سيدة «شروت».

هبَّ من ناحية النافذة صوت القس بكلل لا مبالٍ، بعد أن صمتت العجوز برهة، بالتأكيد كانت منهكة بعض الشيء، بينما كنت لا أزال أعقد الآمال بكل قلبي على تأسيس مبرَّة لرجال الشرطة المساكين.

أومأت السيدة «شروت» برأسها.

ـ اسمع، سيدي اللواء. خلال الأربعينيات تدهورت

حالة صغيري «ألبرت»، رحمه الله، لا أعرف ماذا كان ينقصه، ولكن لا بد أن يكون قد حدث له عطب في رأسه. بمرور الأيام ازدادت بلادته، وازداد صمته أيضًا. كان يحملق أمامه، وكثيرًا ما مرت أيام بأكملها من دون أن ينطق كلمة. كان يقوم بعمله فحسب، كما يُنتظر منه، وبالتالي لم يتحتم عليَّ أن أعنفه، غير أنه كان ينطلق بدراجته ساعات طوالًا. ربما تكون الحرب شوشت ذهنه، أو لأنهم لم يأخذوه في الجيش: كيف لنا أن نعرف ماذا يدور في عقل رجل كهذا! كما أن شرهه كان يزداد يومًا بعد يوم، لحسن الحظ كنا نربي دواجن وأرانب. ثم حدث لصغيري «ألبرت»، رحمه الله، ما أريد أن أحكيه لك الآن، كان ذلك لأول مرة قرب نهاية الحرب.

صمتت السيدة عندما دخلت الممرضة ومعها طبيب إلى الغرفة، ثم بدآ يفحصان العجوز والأجهزة. كان الطبيب ألمانيًّا، أشقر كما في الصور، مرحًا، جريئًا، يقوم بجولته الروتينية يوم الأحد، «كيف الحال سيدة «شروت»، دائمًا شجاعة، النتائج ممتازة، أنا مندهش، مندهش، المهم ألا نفقد الأمل»؛ ثم غادر الغرفة وفي أعقابه الممرضة، أما القس فقال محذرًا:

ـ احكي يا سيدة «شروت»، احكي. في الحادية عشرة سأمسحك بالزيت المقدس.

وهو شيء يبدو أنه لم يكن له أثر مهدئ على المرأة إطلاقًا.

شرعت المرأة تستكمل حكايتها من جديد:

ـ كل أسبوع كان ينقل البيض إلى «زيورخ»، إلى أختي العسكرية، صغيري المرحوم «ألبرت» المسكين، كان يربط السلة على الدراجة من الخلف، وكان يعود مع هبوط المساء، لأنه كان ينطلق مبكرًا، حوالي السادسة أو الخامسة، دائمًا بملابسه السوداء الاحتفالية وقبعته الدائرية. كل الناس كانوا يحيونه بلطف عندما كان يقود دراجته في شوارع «كور» ثم خارجًا إلى الضواحي، يصفِّر أغنيته المفضلة: «أنا فتى سويسري، أحب وطني». كان يومًا حارًّا هذه المرة، في عز الصيف، بعد العيد القومي بيومين. لم يعد إلى المنزل إلا مع انتصاف الليل. سمعته في الحمام يتحرك ويغتسل طويلًا، فذهبت إلى هناك، ورأيت صغيري المرحوم «ألبرت» وكله دماء، حتى ملابسه. «يا إلهي، «ألبرت» ـ ماذا حدث لك؟». راح يحملق فيَّ فحسب، ثم قال: «حادثة يا أمي، لا تشغلي بالك، اذهبي ونامي يا أمي»، وهكذا ذهبت لأنام، وإن كنت متعجبة لأنني لم أرَ أية جروح. في الصباح،

عندما جلسنا إلى المائدة ـ كان يأكل البيض، دائمًا أربع بيضات مرة واحدة مع شرائح الخبز بالمربي ـ قرأت في الجريدة أن بنتًا صغيرة قُتلت في «سان جالن»، ربما بمدية حلاقة، عندئذ تذكرت أنه كان ينظف ليلًا في الحمام مدية الحلاقة أيضًا، مع أنه كان يحلق ذقنه دائمًا في الصباح، عندها فهمت، وكأن الإلهام نزل عليَّ، وهكذا تحدثت بنبرة جادة تمامًا مع صغيري المرحوم «ألبرت»: ««ألبرت»، أنت قتلت البنت في مقاطعة «سان جالن»، أليس كذلك؟» لحظتها توقف عن التهام البيض وشرائح المربي والخيار المخلل، ثم قال: «نعم يا أمي، كان لا بد أن أفعل ذلك. صوت من السماء»، ثم واصل طعامه. كنت في غاية الارتباك: أمريض هو إلى هذا الحد؟ شعرت بالأسف تجاه البنت، وفكرت أيضًا في الاتصال بالدكتور «سيشلر»، ليس العجوز، بل ابنه، وهو أيضًا ماهر جدًّا ومرهف الحس للغاية؛ غير أنني فكرت عندئذ في أختي، كانت ستهلل، سيكون أجمل يوم في حياتها، وهكذا كنت حازمة وجادة للغاية مع صغيري المرحوم «ألبرت»، وقلت له بالحرف الواحد: «لن تكرر هذا أبدًا، أبدًا، أبدًا»، وهو قال: «نعم يا أمي». سألته: «كيف حدث ذلك؟» فقال: «كنت يا أمي أقابل دائمًا بنتًا بفستان أحمر وضفائر شقراء عندما أقطع المسافة من

«فاتفيل» إلى «زيورخ»، وهو طريق طويل، ولكن منذ أن تعرفت على الفتاة، بالقرب من غابة صغيرة، تحتم عليَّ أن أقطع هذه المسافة الكبيرة. صوت من السماء يا أمي، الصوت أمرني أن ألعب مع الطفلة، ثم أمرني الصوت السماوي أن أعطيها من الشوكولاتة التي أحملها معي، ثم تحتم عليَّ قتل البنت، كله بسبب الصوت الآتي من السماء يا أمي. ثم ذهبت إلى الغابة التالية، ورقدت تحت شجيرة إلى أن جاء الليل، ثم رجعت إليك يا أمي». قلت له: «صغيري «ألبرت». لن تأخذ الدراجة بعد اليوم إلى أختي، سنرسل البيض بالبريد». قال: «نعم يا أمي»، ثم وضع كمية كبيرة من المربى فوق شريحة خبز أخرى، وسار إلى المزرعة. قلت لنفسي: الآن، ينبغي عليَّ أن أذهب إلى القس «بيك»، حتى يتحدث مع صغيري «ألبرت» بحزم، ولكن عندما أطللت من النافذة ورأيت كيف كان صغيري المرحوم «ألبرت» يؤدي في أشعة الشمس واجباته بإخلاص، وكيف كان يصلح حظيرة الأرانب صامتًا تمامًا وحزينًا بعض الشيء، وكيف كانت المزرعة كلها تبرق من النظافة، قلت لنفسي: ما حدث، قد حدث. صغيري «ألبرت» إنسان مطيع، وقلبه طيب حقيقةً، ولن يتكرر ذلك أبدًا.

الآن، عادت الممرضة من جديد إلى الغرفة، فحصت الجهاز، وعدَّلت من وضع الخراطيم، والأم العجوز بدت منهكة من جديد فوق وسادتها. لم أكد أجرؤ على التنفس، تفصد وجهي بالعرق من دون أن أنتبه، فجأة شعرت بالبرد وأحسست بأنني موضع سخرية واستهزاء، مرة عندما تذكرت أنني كنت أنتظر من العجوز مبرَّة، ثم بسبب هذه الكمية الهائلة من الزهور، كل هذا الورد الأحمر والأبيض؛ الزهور المشتعلة، «جلاديولس»، «أستر»، زينيا، قرنفل، الله أعلم من أين أتوا بها، مزهرية ملأى بالأوركيد، عبث، تفاخر وتباهٍ، الشمس خلف الستائر، القس الضخم الساكن، رائحة الثوم؛ فجأة، كان من الممكن أن أثور ثورة عنيفة، أقبض على المرأة، ولكن لم يكن لأي شيء معنى، المسحة الأخيرة في انتظارها، وأنا كنت أجلس هناك، عديم الفائدة، بملابس يوم الأحد الاحتفالية.

قال القس محذرًا وبنفاد صبر:

ـ أكملي حكايتك يا سيدة «شروت»، أكملي حكايتك.

وأكملت حكايتها. أضافت بصوتها الهادئ الوديع، كأنها تحكي حكاية خرافية لطفلين، حكاية تحدث فيها أمور شريرة وعبثية، مثلما تحدث فيها أشياء رائعة، خيرة:

ـ وهكذا تحسنت حالة صغيري المرحوم «ألبرت» بالفعل،

لم يعد يسافر إلى «زيورخ»، ولكن عندما انتهت الحرب العالمية الثانية، استطعنا أن نستخدم سيارتنا مجددًا التي اشتريتها عام ١٩٣٨، لأن سيارة المرحوم «جالوزر» كانت بالفعل أصبحت قديمة، وهكذا كان صغيري المرحوم «ألبرت» يقود سيارتنا «البويك» مرة ثانية. ذات مرة سافرنا إلى «أسكونا» على سفح جبل «تامارو»، وعندئذ فكرت ـ لأن قيادة السيارات كانت تسعده للغاية ـ أن بإمكانه أن يسافر إلى «زيورخ» من جديد، وبالسيارة «البويك» فإن الأمر ليس خطيرًا إلى هذا الحد، ولن يسمع صوتًا من السماء، وهكذا بدأ يسافر بالسيارة وينقل البيض إلى أختي من جديد، مخلصًا ومطيعًا، كعادته، وأحيانًا يأخذ لها أرنبًا. وفجأة، لم يعد إلى المنزل إلا بعد منتصف الليل مرة ثانية، للأسف الشديد؛ ذهبت على الفور إلى الجراج، كنت أخمن ما حدث لأنه في الفترة الأخيرة كان يأخذ معه كريات شوكولاتة من علبة البونبون، ووجدت بالفعل صغيري المرحوم «ألبرت» يغسل السيارة من الداخل، والدماء تملأ المكان. قلت له بعد أن أمسى صوتي جادًّا تمامًا: ««ألبرت»، هل قتلت بنتًا مرة أخرى؟». رد عليَّ: «يا أمي، اهدئي، ليس في مقاطعة «سان جالن»، بل في مقاطعة «شفيتس»، لقد أراد الصوت من السماء ذلك، كانت البنت ترتدي أيضًا فستانًا

أحمر قصيرًا ولها ضفائر صفراء». ولكنني لم أهدأ، كنت أكثر صرامةً معه من المرة الأولى. كدت أخاصمه. لمدة أسبوع لم أسمح له باستعمال «البويك»، وأردت أيضًا أن أذهب إلى قداسة القس «بيك»، كنت عازمة على ذلك؛ ولكن الأخت كانت ستحتفل احتفالًا كبيرًا، لم يكن هذا مقبولًا، وهكذا راقبت صغيري المرحوم «ألبرت» على نحو أكثر صرامة، وسار الوضع سيرًا جيدًا لمدة عامين، إلى أن فعلها مجددًا، لأنه وجد نفسه مرغمًا على أن يطيع صوتًا من السماء، صغيري المرحوم «ألبرت»، كان منكسرًا للغاية وبكى، ولكنني عرفت على الفور من الشوكولاتة الناقصة من علبة البونبون. كانت بنتًا من مقاطعة «زيورخ»، أيضًا بفستان أحمر قصير وضفائر صفراء، غير معقول كيف تُلبس الأمهات بناتهن على هذا النحو الطائش.

سألتها:

ـ هل كان اسم البنت «جريتلي موزر»؟

أجابت السيدة العجوز:

ـ كان اسمها «جريتلي»، والسابقتان كان اسمهما «سونيا» و«إيفيلي». لقد حفظت كل الأسماء، ولكن صغيري المرحوم «ألبرت» كانت حالته تزداد سوءًا يومًا بعد

الآخر، بدأ يشرد، وكان عليَّ أن أقول له كل شيء عشر مرات، وأن أعنفه طوال اليوم كما يتعامل الإنسان مع صبي، ثم في عام ١٩٤٩ أو ١٩٥٠، لم أعد أتذكر بالضبط، عدة أشهر بعد «جريتلي»، بدأ القلق وضعف التركيز يستوليان عليه من جديد، حتى إن الفوضى سادت حظيرة الدجاج، وراح الدجاج يصيح كالمجنون، لأنه لم يعد يجهز العلف كما ينبغي، ودائمًا كان ينطلق بالسيارة «البويك»، طوال العصر، ولم يكن يقول سوى إنه يذهب للتنزه. وذات يوم لاحظت مرة ثانية غياب قطع شوكولاتة من علبة البونبون. عندئذ ترصدته، وعندما تسلل إلى غرفة المعيشة، صغيري المرحوم «ألبرت»، ممسكًا بمدية الحلاقة كأنه يمسك قلم حبر، سرت إليه وقلت له: «صغيري «ألبرت»، هل وجدت بنتًا جديدة؟». أجاب: «صوت من السماء، يا أمي، من فضلك، اتركيني هذه المرة فقط، عليَّ أن أطيع الأمر النازل من السماء، وهي أيضًا ترتدي فستانًا أحمر قصيرًا، ولها أيضًا ضفائر صفراء». قلت له بصرامة: «صغيري «ألبرت»، لا يمكن أن أسمح لك بذلك. أين البنت؟». أجاب صغيري المرحوم «ألبرت»: «ليست بعيدة عن هنا، عند محطة وقود، من فضلك، من فضلك يا أمي، اتركيني أطيع». عندئذ انفعلت وقلت له: «لا يا صغيري

«ألبرت»، أنت وعدتني. هيا، نظف الآن حظيرة الدجاج، وضع للفراخ ما يكفيها من طعام». عندئذ ثار صغيري المرحوم «ألبرت»، لأول مرة خلال زواجنا الذي كان عمومًا متناغمًا، وصرخ: «أنا مجرد عبد في بيتك»، إلى هذا الحد بلغ مرضه، ثم ركض إلى «البويك» بكريات الشوكولاتة ومدية الحلاقة، وبعد ربع ساعة اتصلوا بي وأخبروني أنه اصطدم بشاحنة ومات. قداسة القس «بيك» جاء، ورئيس نقطة الشرطة «بولر» الذي كان دومًا رقيق المشاعر، ولهذا كتبت في وصيتي ٥٠٠٠ فرنك لشرطة «كور»، و٥٠٠٠ لشرطة «زيورخ»، لأنني أملك بيوتًا هنا في «فراي-شتراسه»، وطبعًا جاءت أختي أيضًا مع سائقها حتى تغيظني، لقد أفسدت الجنازة كلها.

رحت أحملق في العجوز. ها هي المبرَّة السعيدة التي كنت طيلة الوقت في انتظارها قد جاءت أيضًا. وكأن القدر أراد أن يتهكم مني على نحو خاص.

ثم أتى البروفيسور أخيرًا ومعه طبيب وممرضتان. طلبوا منا مغادرة الغرفة. سلمت على السيدة «شروت» قبل أن أنصرف.

قلت مرتبكًا وشاردًا، وليس في رأسي سوى أن أغادر هذا المكان بأقصى سرعة:

ـ وداعًا.

بدأت السيدة تضحك بصبيانية، أما البروفيسور فنظر لي نظرة متفحصة غريبة؛ كان المشهد كله محرجًا، وكنت سعيدًا بأنني أخيرًا أترك العجوز والقس وكل الموجودين هنا.

خطوت إلى الممر. من كل ناحية أتى زوار يحملون علبًا وزهورًا. رائحة المستشفيات تسود المكان. هربت. كان المَخْرج قريبًا، وتوهمت أنني في الحديقة. ولكن في تلك اللحظة كان رجل ضخم يلبس ملابس سوداء احتفالية بوجه طفولي وقبعة يدفع في الممر كرسيًّا متحركًا عليه امرأة مجعدة البشرة ترتعش. العجوز الهرمة كانت ترتدي معطفًا من الفراء، وعلى كلتا ذراعيها زهور، باقة عملاقة. ربما تكون هذه هي الأخت ذات التسعة وتسعين عامًا مع سائقها، ما أدراني أنا؟ تتبعتهما ببصري مرعوبًا حتى اختفيا في القسم الخاص، ثم أسرعت الخطو حتى كدت أعدو، واندفعت خارجًا، وعبرت الحديقة مارًّا بمرضى على كراسٍ متحركة وناقهين وزوار، ولم أهدأ بعض الشيء إلا بعد وصولي إلى «كرونن–هاله». عند احتساء «الليبركنودل».»

٣٠

«من مطعم «كرونن-هاله» اتجهت مباشرة إلى «كور». تحتم عليَّ للأسف أن أصطحب زوجتي وابنتي. كنا في يوم أحد، وسبق لي أن وعدتهما بقضاء العصر معهما، ولم أكن أريد أن أقدم شرحًا أو تفسيرًا. لم أنطق بكلمة، قدت السيارة بسرعة مخالفة، ربما كان من الممكن إنقاذ شيء. لم يكن باستطاعتي أن أجعل عائلتي تنتظر طويلًا أمام محطة الوقود. على البار كانت الحركة دائبة. «أنّاماري» عادت لتوها من سجن «هندلبنك»، المكان مليء بالرجال الأشرار. بالرغم من البرد كان «متّى» يجلس بـ«العفريتة» الزرقاء على دكته، يدخن عقب سيجارة، ومن فمه تفوح رائحة خمر «الأبسنت». جلست بجانبه وأخبرته بالأمر بكلمات قليلة. لم يكن يصغي إليَّ بالمرة، ترددت للحظة، ثم عدت إلى سيارتي «الأوبل كابتن»، وانطلقت

تجاه «كور»؛ العائلة نفد صبرها وجاعت. سألتني زوجتي التي لم تكن تعرف ـ كالمعتاد ـ شيئًا:

ـ ألم يكن هذا «متّى»؟



ـ بلى.

ـ اعتقدت أنه في الأردن.

ـ لم يسافر يا حبي.

في «كور» وجدنا صعوبة في إيجاد مكان للسيارة. محل الحلويات كان مكتظًّا بالزبائن، كلهم من أهل «زيورخ»، يملأون بطونهم ويعرقون، ثم صراخ الأطفال. مع ذلك وجدنا مكانًا، طلبنا شايًا وكعكًا. ثم نادت زوجتي الفتاة مرة أخرى:

ـ وأحضري لنا ٢٠٠ جرام من كريات الشوكولاتة المحشوة.

تعجبَتْ زوجتي قليلًا عندما لم أمس منها شيئًا. لا قوة على الأرض سترغمني على ذلك.

* * *

والآن، يا سيدي، يمكنك أن تفعل بهذه الحكاية ما شئت.

الحساب يا «إيما».»

الكاتب

وُلِد «فريدريش دورِنمات» عام ١٩٢١ بالقرب من العاصمة السويسرية «برن» ابنًا لقس بروتستانتي. بعد أن بدأ دراسة الفلسفة والأدب والعلوم الطبيعية، ترك الجامعة قبل أن يتم الدراسة، ثم تأرجح فترة بين الفرشاة والقلم، إلى أن تفرغ للكتابة النقدية ثم الإبداعية، من دون أن يهجر الفن التشكيلي. وتبين رسوماته وإسكتشاته أن المسرح بالنسبة له كان حلقة الوصل بين الرسم والكتابة.

و«دورِنمات» من أشهر كُتاب المسرح المعاصرين في البلاد الناطقة بالألمانية وفي العالم، ومن أعماله المعروفة: «زيارة السيدة العجوز» و«علماء الطبيعة» و«رومولوس العظيم». وقد تُرجم عدد كبير من أعمال «دورِنمات» الدرامية إلى العربية، وقُدمت في غير بلد

عربي. وكان القاص والمسرحي المصري يوسف إدريس من أشد المعجبين بمسرح «دورِنمات». وزار إدريس الكاتب السويسري في بيته منتصف الثمانينيات وأجرى معه حوارًا مطولًا نشره لاحقًا في كتابه «عزف منفرد».

واشتُهر «دورِنمات»، إلى جانب مسرحياته، برواياته البوليسية، مثل «القاضي وجلاده» و«العطل» و«التكليف». لم يختر الكاتب هذا الشكل الأدبي طواعية، بل لجأ إليه تحت وطأة الحاجة إلى المال. آنذاك كانت زوجته الحامل ترقد في المستشفى، ثم عانى هو من نقص حاد في نسبة السكر في الدم، فنُقل أيضًا للمستشفى. كانت تكاليف العلاج باهظة، لذلك راح يتصل بعدد من الناشرين عارضًا عليهم مشروعات قصصية مختلفة لم يكن كتب منها حرفًا، وذلك حتى يدفعوا له عربونًا يستطيع أن يسدد به بعض ديونه. وهو ما حدث. وعندما تعاقد على نشر روايته الأولى «القاضي وجلاده» مسلسلة، حصل الكاتب الشاب على ٥٠٠ فرنك سويسري. وعندما عاد بالنقود إلى المنزل، ظنت زوجته أنه سرق المال!

ويرى عديد من النقاد رواية «الوعد» درة روايات «دورِنمات» البوليسية. صدرت الرواية عام ١٩٥٨،

وهي في الأصل سيناريو لفيلم سينمائي أنتج في العام ذاته بعنوان «حدثَ في وضح النهار»، وكان الغرض منه إطلاق إشارة تحذير ضد جرائم التحرش الجنسي بالأطفال. بعد الانتهاء من السيناريو قرر «دورِنمات» تقديم معالجة روائية للموضوع بعيدًا عن أي أهداف تربوية، فكتب «الوعد» متناولًا موضوعه الأثير ـ العدالة وعجز القانون عن تحقيقها ـ وساخرًا من منطق الرواية البوليسية نفسها، ولذلك أطلق على الرواية عنوانًا جانبيًّا هو: «في رثاء الرواية البوليسية». يقول «دورِنمات»: «كيف يستطيع الفنان أن يبدع في عالم متخم بالثقافة؟ (...) لعل أفضل شيء أن يكتب روايات بوليسية، وأن يصنع الفن حيثما لا يتوقعه أحد. إن على الأدب أن يغدو خفيفًا، وألا يزن شيئًا على ميزان النقد الأدبي المعاصر، فهذا هو السبيل الوحيد كي يكتسب وزنًا من جديد». وقد تناولت السينما الألمانية والأمريكية «الوعد» عدة مرات بعد ذلك، كان آخرها عام ٢٠٠١ بعنوان «ذا بليدج»، وقام ببطولة الفيلم «جاك نيكلسون» وأخرجه «شُن بِن».

حصدت أعمال «دورِنمات» جوائز عديدة مرموقة، منها «جائزة شيلر-مدينة مانهايم»، و«جائزة الدولة النمساوية

للأدب الأوروبي»، و«جائزة جيورج بوشنر» وهي الجائزة الأدبية الأهم للأعمال باللغة الألمانية.

توفي «دورِنمات» عام ١٩٩٠ قبل أسابيع من الاحتفال بعيد ميلاده السبعين. وفي عام ٢٠٠٠ سُمِّي كوكبٌ صغير على اسمه.



المترجم

درس سمير جريس الألمانية وآدابها في القاهرة و«ماينتس» بألمانيا، وترجم من الألمانية نحو عشرين عملًا من الأعمال الأدبية المعاصرة، منها: «عازفة البيانو» لـ«إلفريده يلينك» (نوبل ٢٠٠٤)، و«الكونتراباص» لـ«باتريك زوسكيند»، و«رجل عاشق» لـ«مارتين فالزر». ألَّف كتابًا عن الكاتب الألماني «جونتر جراس» بعنوان «جونتر جراس ومواجهة ماضٍ لا يمضي» (الكتب خان، ٢٠١٦).

ترجم لـ«دورِنمات»، إلى جانب «الوعد»، مجموعتين قصصيتين هما: «أبو حنيفة وأنان بن داوود» (الجمل ٢٠٠٤)، و«السقوط» (الكتب خان ٢٠١٧).

حصل على «جائزة معهد جوته للترجمة الأدبية» في فئة المترجمين المتمرسين عام ٢٠١٤، وعلى الجائزة الأولى في ترجمة القصة من المجلس الأعلى للثقافة في مصر عام ١٩٩٦.

«فاتنة»
«الواشنطن بوست»

«دس السيد «دورنمات» في روايته القصيرة بعض الأسئلة الأخلاقية المحيرة»
«أتلانتك منثلي»

تُقتل فتاة صغيرة في بلدة في سويسرا، فيَعِد المخبر والدة الضحية بأنه سوف يعثر على الجاني. وبعد أن يقرر أن الرجل الخطأ قد اعتقل، ينصب فخًا للقاتل الحقيقي، إلا أن المنعطفات القاسية في أحداث الرواية تجعل المخبر يدفع ثمن وعده غاليًا.

تُظهر ترجمة سمير جريس البديعة قدرة الكاتب السويسري الأشهر، «فريدريش دورنمات»، الفريدة في صياغة الحوارات، وعبقريته في التوقيت والتشويق وصوغ نهاية تقشعر لها الأبدان.

تُرجمت الرواية إلى أكثر من ١٥ لغة، واقتبست للمسرح عدة مرات، كما تحوّلت إلى أفلام في كل من إيطاليا والمجر وبريطانيا وألمانيا، وكان آخر تصوير سينمائي لها في الولايات المتحدة عام ٢٠٠١، بإخراج «شون بن»، وبطولة «جاك نيكولسون».